
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
رواية
قانون الدويني
القضية الأخيرة
شريف سالم
دارك

قانون الدويني
تأليف شريف سالم

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

البشر ثلاثة أنواع:
النادرون.. هؤلاء من سيتشبثون بإيمانهم إلى النهاية.
النادمون.. الذين يلعقون تراب الأرض خلف شهواتهم حتى الكفن.
المترددون.. في نار الدنيا وأول من سيقفون على باب نار الآخرة.
من الصعب أن تكون قاضيًا..
أعلم ذلك عن ظهر قلب، والدي كان قاضيًا ووالده كذلك، أن تعيش وسط كل تلك القواعد ليل نهار، مع الوقت تبني أسوارًا لخيال عقلك، ويصبح قلبك لا شيء سوى مضخة للدم، تحتاج لأن تتجرد من كل صفات الانحياز، تلك الصفات التي تجعلنا بشرًا في الأساس، أن تكون بشرًا هو أن تؤمن وتعتقد وتنحاز، كل هذا لا يعطي الشفافية المطلوبة لحُكمٍ عادلٍ، أو.. هكذا تعلمت، هذا ما كبرت عليه..
لا أعرف شيئًا آخر!
القضية التي سوف تقرأها الآن ليس لها حكم عادل، ليس لمشكلة في الأدلة أو الإجراءات، وبالطبع ليس للخوف من ظُلم أحدٍ أطراف القضية، أعرف أنني بوظيفة مثل تلك، أراهن مستقبلًا على آخرتي برمية نرد، اثنان لواحد ، ولكن .. أسوأ أنواع القضايا تلك التي تلتف بها المشاعر لتحاول تقييد القوانين، أن تكون إنسانًا عند نطق الحكم، لا قاضيًا، كل هذا لن يمنع النهاية؛ أنك ستقول حكمك، ولن يكون عادلًا، وأنت تعرف ذلك، ولكنك ستعيش بلا أي ندمٍ، أو هذا ما سوف تقنع به نفسك، فقط ردِّد داخلك: أنا فعلت ما هو صحيح، أنا راضٍ.

الفصل الأول
مطرقة الدويني

لا تنخدع بما تراه عيناك، البراءة ليس لها شكل، ولا الإثم، نحن فاسدون في عيونٍ، وصالحون في أخرى، وجميعنا أشرارٌ في رواية أحدهم.
قاعة المحكمة
يجلس عزت الدويني على كرسي القاضي في مللٍ وهو ينظر إلى القاعة والموجودين بلا مبالاة.
لا شيءَ جديدٌ، نفس الحوائط الرمادية التي تهلهلت من محاولات إعادة دهانها، لون الخشب البني المقزز الذي يملأ كل أثاث القاعة، من المنصة وكراسي القاعة والفواصل، أغلب الأمر عندما تدخل مبنى قديم فتشم رائحة شيءٍ من تاريخ تشع كالنور في المكان، أما هنا فلا، بالرغم من ثراء المؤسسة القضائية إلا أنها ارتضت بدهان هذا الخشب من فترة لأخرى بنوعٍ رخيصٍ من الدهانات، هذا النوع الذي إذا اقتربتَ منه وشممته تشعر كأنك دُهنت به.
محامٍ شاب ساذج يقف أمام المنصة، كلهم يحاولون تقليد أحمد زكي في فيلم ضد الحكومة، يدافعون عن الحق في غير محلِّه، كالعادة يكون الهدف هو الشهرة أو شيء من سمعة لتوفر له زبائن جُددًا، ولمَ لا وقضية اليوم شيقة برغم أنها خاسرةٌ، ولكن يبدو أن لا شيء شيق أو مثير لـ «عزت».
مواطن مصري يدعى سمير محروس ابنه ذو العشر سنوات يصاب في حادث فيذهب به إلى أقرب مستشفى، ولسوء الحظ تكون مستشفى خاصة ومحترمة وشهيرة، ترفض المستشفى عمل أي شيء قبل أن يضع عدة آلاف من الجنيهات في الخزينة، المواطن لا يملكها فيلجأ إلى طلب الإسعاف لنقله إلى مستشفى أخرى، وكما نعلم في مصر إن لم يكن بطءُ ومماطلة كل موظفي الجمهورية حائلاً؛ فزحام المدينة كافٍ، وترفض المستشفى عمل شيء نظرًا لأن المريض يحتاج إلى جراحة، فقط بعض الإسعافات التي تجعله يعيش لساعات قادمة، فيقرر المواطن إجبار المستشفى على عمل العملية اللازمة برفع سكين على موظفة الاستقبال وحجزها في غرفة حتى يقوموا بعمل العملية لابنه الذي يموت، ينجح في إقناعهم بتلك الطريقة بعد مفاوضات، يقومون بالعملية ويتم إنقاذ حياة ابنه، ويسلم هذا البائس نفسه إلى الشُّرطة، طبعًا حتى لا يتكرر مثل هذا الموقف، قررت المستشفى أن تسلخ هذا الغلبان أمام الجميع، أن ترفع عليه كل القضايا وتتهمه كل الاتهامات الموجودة، ووكلت مستشارها القانوني للانتصار للقضية.
في عالمٍ آخر أو رواية شيقة، كان هناك من سيتعامل مع تلك القضية بإنسانية لتتنازل المستشفى أو يخرج ثري ليساعد الرجل في الخروج من محنته وترضية المتضررين.
ولكن عزت الدويني شيء مختلف نوعا ما.
بينما هذا الساذج الشاب الذي يحاول استجداء المحكمة بعين العطف على هذا المسكين الذي اضطرته الظروف لسلوكٍ غيرِ قانوني إنقاذًا لفلذة كبده، وكل أبيات الشعر والآيات القرآنية التي استخدمها، في الوقت الذي سوف ينهي فيه الخطبة شديدة البلاغة، سيحكم عزت على الرجل بحكم مُشدَّدٍ سيجعل اللقاء الثاني بينه وبين ابنه الذي أنقذه في ليلة فرحه مثلًا.
كان عزت قد قرأ القضية أمس جيدًا واتخذ حكمه، كل ما يحدث أمامه هو مشهد متمِّم في الفيلم، حتى يشعر المتهم بقليلٍ من الأمل، ويشعر أهله أن المحامي الذي دفعوا له حاول أن يفعل شيئًا.
- في النهاية أترك الأمر بين يدي سيادتكم.

- شكرًا، الحكم بعد المداولة.
يخرج عزت وزملاؤه من المحكمة إلى غرفة القاضي سويًا خلف المنصة، يدخلون الغرفة ويجلس ثلاثتهم، ينظر عزت إلى أحدهما:
- عزت بيه الحكم معاك.
- وسيادتك يا أكرم بيه؟
يضع أكرم يده في جيبه ويخرج هاتفه ويفتحه دون أن ينظر إلى عزت.
- هخلص دور كاندي كراش واقف معايا بقاله أسبوع.
- ربنا يكون في عون سيادتك.
يجلس عزت إلى مكتبه ويقلب في الأوراق وهو ينظر إلى زميله الثالث وهو يمسك هاتفه ويشاهد شيئًا به هو الآخر. بعد قليل يخرجون من الغرفة إلى قاعة المحكمة.
- محكمة..
يقف الحاضرون جميعًا، وبعد جلوس هيئة المحكمة يجلس الجميع. ينظر عزت إلى القاعة، كثير من العيون تملأها الكثير من المشاعر، التي على وشك أن تنهار جميعها.
- حكمت المحكمة على المتهم سمير محروس الشيخ بالسجن المشدَّد عشر سنوات في التُّهَم الموجهة إليه، رُفِعَت الجلسة.
لم يكن ينظر إلى القاعة ليشاهد البكاء والصراخ وانهيار المتهم وكل تلك المشاهد التي تعبر عن الفاجعة التي ضربت أسرة في مقتل، لم يكن ينظر حتى لا يشعر بالتعاطف، بل لأن لقاء عينيه بأعين اللوم والحزن تجعله لا يرتاح في شرب فنجان القهوة الذي يعد له الآن حتى يجده جاهزًا عندما يخرج من القاعة بعد نطقه بالحكم، ليس ذنب فنجان القهوة أن يبرد لأجل مذنب يطمع في معجزة ما في هذا العصر.
يخرج ليجلس إلى مكتبه، بينما يرحل زملاؤه المستشارون ليجلس قليلًا يستمتع بفنجان قهوة بعد أن يطفئ نور الغرفة، قليلًا من الهدوء، ثم ينزل إلى موقف سيارات المحكمة، يركب سيارته Audi حديثة الموديل، وينطلق في طريقه عائدًا إلى المنزل.
مَن هو عزت؟
قاضي في أوائل الأربعينيات، مُطلَّق، ويعيش وحيدًا في منزله بالمعادي، أنجب من زوجته السابقة ابنًا يدعى كريم 15 سنة، يعيش مع والدته وزوجها بالتجمع الخامس، طويل القامة وقوي البنية، وجهه صلب وحاد الملامح بشارب رفيع يجعل شكله كلاسيكيًّا كأحمد مظهر، الابتسامة الحقيقية زائر غير مُحبَّب إلى تجاعيده القليلة وشفتيه، بينما السخرية هي غالبُ حواره، يملك من الهدوء ضِعف ما يملكه الموت، مما يوضح لماذا هو مطلَّق، فتلك مواصفات الزواج من جثة، لا امرأة من لحم ودم، ولكن التفاصيل تأتي.
ساعة تفصله من المحكمة إلى البيت في اليوم العادي شبه المزدحم، يصل ويصعد إلى شقته في الدور الثاني في عمارة بأحد شوارع المعادي الضيقة التي أغلب سكانها من الأجانب، يدخل إلى منزل ويضع حقيبته الجلدية، يخلع معطفه وحذاءه ثم يمسك هاتفه المحمول ليطلب رقمًا مسجلاً لديه.
- آلو.
- مساء الخير يا شيرين.

- مساء النور.
- بكرة أعدّي عليكوا الساعة واحدة؟
- مفيش مشاكل.
- كريم في البيت؟
- لا هو دلوقتي في التمرين.
- خلاص بلغيه إني بكرة أعدي عليه بعد الصلاة.
- هتروحوا فين؟
- النادي كالعادة.
- حاضر هيكون جاهز إن شاء الله.
- كويس، سلام عليكم.
- وعليكم السلام.
يغلق الاتصال ثم يعاود الاتصال برقمٍ آخر.
- باشا.
- إزيك يا مكرَم بيه؟
- الحمد لله.
- هشوفك على القهوة الليلة؟
- أكييد، واحنا ورانا حاجة تاني؟!
- خلاص، على الساعة 8 كدا.
- أوامر سعادتك.
- سلام.
يغلق الاتصال، يدخل إلى غرفة النوم ليرتدي ملابسه المنزلية المريحة، يذهب إلى المطبخ ليفتح أحد درفه ويُخرِج زجاجة فودكا، يخرج كوبًا ويضع به ثلاث قطع من ثلجٍ ويذهب بهم إلى الصالة ليجلس على الأريكة ويصب الكوب حتى نصفه، يأخذ رشفة وهو يُمدِّد جسده ليريحه بينما يتساءل أين يمكنه أن يمدد عقله للراحة، متى يصل إلى سِنِّ المعاش حتى ينتهي من هذا الهراء اليومي، تلك القضايا المملة والمكررة، ألن يمل البشر ويأخذوا إجازة من القتل والسرقة والنصب؟! لماذا ليس هناك يومٌ عالمي للثبات؟! يوم يستكمل البشر نومهم إلى نهايته بدلًا من الاستيقاظ ليطاردوا بعضهم البعض، على المال والنساء والأولاد، تلك الدائرة التي لن تنتهي حتى تنتهي الحياة، أن تكون قاضيًا هو أن تكون حَكَمًا في مباراة يخسر كل أطرافها، أن ترى الحق ولا تستطيع إنصافه لعدم اكتمال الأدلة أو تأخُّرها، وأن تحكم للباطل بالانتصار تحت آية قرآنية تُقِرُّ بالعدل بين الناس!
يستكمل الكأس إلى آخره ويغمض عينيه، ليذهب في غفوة تتحول إلى سبات النوم.
***
الساعة الثامنة والنصف
يجلس مكرم مفتاح على المقهى الموجود في منطقة مصر الجديدة، بيده الشيشة واليد الأخرى يتصفح الهاتف، محامٍ على قدرٍ كبيرٍ من الشهرة رغم صغر عمره، يصغر عزت بسنتين، ولكنه صديقٌ قديمٌ، يظهر عزت وهو يسير إلى داخل القهوة التي أغلب روادها يتخذون الرصيف مكانًا، عدا عزت وبضعة آخرين يفضلون الجلوس داخل المقهى الضيق القديم.

- إيه إنت راحت عليك نومة ولَّا إيه؟!
يرد عزت بينما يسحب كرسيًّا في واجهة مكرم:
- ممكن تقول حاجة زي كده.
- لا دا على كده كويس أنك جيت.
يسكت مكرم لثوانٍ بينما يسحب نفسًا عميقًا من الشيشة قبل أن يستطرد والدخان يخرج من فمه
- بس إنت إيه، كل مرة تثبت لي إنك زي القطر.
- في إيه إن شاء الله؟
- إديت الرجل الحُكم زي ما بيقول الكتاب، مارمشتش حتى وانت بتقوله.
يسكت عزت لثوانٍ قبل أن يُشير لصبي الشيشة ويرد بهدوءٍ:
- هيتحول للاستئناف وهينزِّلوا كام سنة منه.
ينظر له مكرم باستغراب:
- طيب ما كنت إنت خففته من الأول يا رجل، دي قصة إنسانية.
- ما دامت إنسانية، يبقى دا أقل حكم أديهوله.
- يا ساتر.
يرمقه عزت بنظرة:
- خطف واحدة بتهديد السلاح، واحتفظ بيها رهينة، إديله أوسكار؟!
- لا إديله خمس سنين، الرجل كان تحت تأثير المشاعر.
- مصر كلها تحت تأثير المشاعر والضغط وحاجات كتير، كل واحد يعمل كده، هتبقى مزبلة.
- أيوه يا سيدي أنا قُلتلك إلزقه حكم ماشي، بس مش كان أخف من كده شوية، الرجل كانت نيته سليمة.
- الحكم حُكم، وأنا ما أعرفش موضوع النية ده، لو هحكم بالنوايا يبقى نحكم بملك وكتابة.
يبتسم مكرم في شيءٍ من تعجب:
- يا عم خلاص، أنا بس بخاطب الإنسانية جواك.
ينظر له عزت بابتسامة سخرية:
- متخاطبش يا عم حد متعرفوش
- حاضر
يدخل القهوجي حاملًا شيشة مبتسمًا:
- سيادة المستشار.
- إزيك يا رجب؟
- الحمد لله.
يضع الشيشة أمام عزت وهو يرص الفحم على الحجر بعناية شديدة، بينما ينظر مكرم لعزت:
- هتشوف كريم بكرة؟
- آه إن شاء الله.
- وهتوديه النادي برضو؟
- أكيد.
- غيَّر بقى الواد هيمل منك، وديه حتة جديدة.

- أوديه ديسكو يعني مثلًا؟
- ماقُلتش كده، سينما مثلًا.
- مابحبهاش.
- إنت بتخرَّجه هو، مش انت اللي بتخرج، اعرض عليه الأول حتى.
- هو لو مش عاجبه هيقول، هو ما اشتكاش، وبعدين عرفت منين إنه عايز يغير؟
- أقولك وماتزعلش؟
- لا ماتقولش.
يسكت كلاهما وهما يدخنان الشيشة ويستمتعان بلا شيء، تلك هي ميزة المقاهي أن تستمتع بوقت الفراغ في حياتك، عندما تكبر في السن وتعلم أن الصمت له قدسية، بعد فترة الشباب والحياة السريعة، وأنت تبحث عن الاستقرار في بداية حياتك، عندما تنتهي رحلة البحث وتجرِّب كل الشهوات، المنزل والزواج والأطفال، كل متاع الدنيا، وتكبر في السن حين لا تجد أيًّا من تلك الأشياء يرضي عقلك وقلبك، وينتهي الجهد الإضافي الذي تبذله من أجل مستقبلٍ مُريحٍ، ويصبح الروتين حاكمًا لأيامك وتجد الموت يطل من بعيد عليك، تبدأ في تعلُّم فن الاستمتاع بالصمت والفراغ، فترة السعادة في المقاهي لألعاب الطاولة التي لا هدفَ منها ولا تطور، والجلوس في شرفات المنازل وأكواب الشاي المُرة ومشاهدة المارة، وأمام التلفاز لمتابعة الأفلام المكررة والبرامج التافهة التي لا تهدف لأي جديدٍ، عزت يعيش هذه الفترة في الأربعينيات، هناك من يصادفها بعد المعاش، وفي هذا العصر هناك من يصادفها في العشرينيات والثلاثينيات، أن تنقض على حياتك لتأخذ كل المتعة الممكنة ويبقى لك الملل، بعد أن تكون قد تعوَّدت على المشاكل والعثرات المالية وآلية البحث عن مستقبل أطفالك الذي ينتهي في الغالب بموتك ويبقى المستقبل أمامهم مبهمًا كأنك لم تكن.
يستكملان الجلوس في صمتٍ قبل أن يقطعه مكرم بعد ما يقرب من ساعة.
- بقولك، في حاجة جت قُدَّامي قُلت أقولك عليها.
- خير يا عم مكرم؟
- في واحدة معرفة جت معايا المكتب اسمها صباح، 34 سنة ومطلقة، مابتخلفش على ما فهمت، بنت ناس بس غلبانة وفي حالها لسه جاية مكان البنت اللي مشيت من السكرتارية، إيه رأيك؟
- في إيه؟ جواز قصدك؟
- لو ينفع تترافق مش هعز عليك، بس للأسف لا.
- التجربة الناجحة هي اللي الإنسان بيكررها، يعني لو اتجوزت وانبسطت تتجوز تاني، لكن تكرار الفشل ده فلسفة الأغبياء، وشكرًا على العرض يا عم الخاطبة.
- أنا بشتم نفسي كل مرة بجبلك السيرة دي.
- ماتقولش كده، دا انت حبيبي.
- طيب يا اخويا.
يضحك مكرم بينما يكتفي عزت بالابتسامة الجامدة، يتسامران قليلًا حتى يأتي موعد الرحيل بعد جلسة لم تزد عن ساعتين، فينطلق كُلٌّ منهما في طريقه.
***
يوم الجمعة

عزت يقف بسيارته تحت بيت طليقته منتظرًا كريم ابنه، ثلاث دقائق ويظهر الشاب الذي لا تظهر عليه بوادر الفرحة لرؤية أبيه، يركب السيارة في روتين كأنه جندي يركب سيارة الترحيل إلى الخدمة العسكرية.

- صباح الخير يا بابا.

- إزيك يا كريم عامل إيه؟

- الحمد لله.

يهم عزت بالقيادة قبل أن يقف لثانية.

- كريم، تحب نروح حتة غير النادي؟

يندهش كريم لمدة 10 ثوانٍ، ثم 10 ثوانٍ أخرى للتفكير قبل أن يرد على أبيه:

- لا النادي كويس.

ابتسامة رضا على وجه عزت الذي يقود السيارة إلى النادي الموجود قريبًا بالتجمع أيضًا، بينما ينظر كريم إلى هاتفه ويلعب به، يصلان إلى النادي ويذهبان إلى نفس الكافيتريا ويجلسان في نفس المكان الأسبوعي، كريم الذي يتمرن على السباحة في النادي، أيضًا يتمرن على إخفاء مشاعر الملل من جلسته الأسبوعية مع أبيه الصلب الذي يدير نفس الحوار منذ سنوات، كريم يتخيل للحظات أنه سوف يأتي وحده إلى هذا المكان ويعيد الحوار الأسبوعي ثم يعود إلى المنزل، دون الحاجة إلى أبيه.

- إيه الأخبار؟

- الحمد لله.

- عامل إيه في المدرسة؟

- الحمد لله، كويس.

- طيب هايل.

ومجموعة أسئلة أخرى تتمم الأحداث المملة للجلسة، قبل أن يختار كريم لإضافة شيء جديدٍ.

- أنا كنت بقرأ حاجة عنك النهارده في الأخبار.

ينعقد حاجبي عزت:

- والأخبار كانت كاتبة عني إيه إن شاء الله؟

- القضية اللي انت حكمت فيها إمبارح بتاعة الرجل اللي كان في المستشفى.

ينبسط حاجبي عزت بسرعة وهو ينظر إلى كريم بابتسامة:

- آه، وكاتبين عني إيه؟

- مش كتير، اسمك بس وإنك واحد من أقوى القضاة الموجودين في الساحة.

- طيب، ودي حاجة تبسطك ولا تضايقك؟

ينظر له كريم بنظرة حيرة:

- تبسطني وماتبسطنيش.

- إزاي؟

- الرجل كان بيدافع عن ابنه، وانت مارحمتهوش خالص.

يعود حاجبي عزت للانعقاد:

- دا قانون يا كريم، لما تكبر هتفهم إن اللي عمله غلَط.

شيء من عصبية يندفع للحظة على وجه كريم ثم يختفي مرة أخرى.
- أنا كبير وفاهم يا بابا، بس أكيد الحُكم كان ممكن يكون أقل من كده.
يرد عليه عزت في هدوء وبساطة:
- اللي عمله هو دا جزاؤه في القانون اللي أنا بطبَّقه، أنا فيه قواعد بشتغل بيها، وبشوف القضية تستاهل ايه وبطبَّق، الحكم قاسي عشان الجريمة كانت قاسية، بيدافع عن ابنه دي لما يكون في إطار قانوني، لو حد عايز يقتل ابنه وهو راح قتله ممكن الحكم كان يبقى مُخفَّف، لكن لو قريت القصة من أولها، الموظفة المسكينة اللي اتهددت في حياتها والمستشفى اللي اتضربت سمعة أمنها دول ليهم حق زي ما هو ليه حق، بُص على كل الأطراف المتضررة واحكم يا كريم.
- بس في الآخر يا بابا ماحدِّش حصلُّه حاجة ومفيش ضرر، إيه لزمة بقى إنك تديله 10 سنين من عمره بيكلم نفسه؟
- لا طبعًا، المستشفى اتضرت والموظفة اتضرت، ولو ماحكمتش عليه بالحكم الرادع ده، كل واحد عنده تعويرة في وشه هيعمل نفس العَملة، الحكم لازم يكون رادع عشان الجريمة ماتتكررش.
ينظر له كريم مرة أخرى بعدم اقتناع ويسكت، فيستطرد عزت:
- ما اقتنعتش؟
- الصراحة لا.
- لما تكبر هتفهم وتقتنع.
تزيد نظرة الضيق على وجه كريم الذي يفضل الصمت على استكمال الجدل مع أبيه الصلب الذي لا يلين، ولاتهامه الدائم له بأنه منقوص العقل والخبرة، يقرر استكمال الصمت لآخر اليوم، عزت لم يعترضه ولم يحاول أن يتفهم ضيقه، يتركه للأيام لعلها تعلمه، ولكن الأيام لا تجيد شيئًا سوي زيادة الفجوة بينه وبين أبيه، يجلسان حتى يتناولا الغداء سويًّا، قبل أن يعيده أبوه إلى المنزل، ويقود عائدًا إلى إلى بيته مرة أخرى. في الطريق يضع سماعة الهاتف في أذنه بينما يقود السيارة، يختار اسم في قائمة الاتصال ويطلب، حتى يأتي صوتٌ أنثوي من الجهة الأخرى.
- سعادة باشا.
- إزيك يا مروة؟
- إزَّي حضرتك يا سيادة المستشار.
- إيه مش هشوفك؟
- أكيد، تحب حضرتك إمتى؟
- مستنيكي النهارده، الساعة 9.
- هكون عند حضرتك في الميعاد.
يستكمل القيادة حتى منزله، يصعد ويجهز نفسه لقضاء سهرة سعيدة، لا يحتاج لعمل شيء كبير في المنزل لأن القادمة ليست على موعد غرامي ولا زيارة رسمية، بالنسبة له مجرد عاهرة لا حاجة لترتيبات إضافية، يدفع مبلغًا كبيرًا لها ليس لأنها أجمل عاهرات الكون، ولكن لأن المنظومة التي تتبعها تتكفل بكامل السرية لعملائها، إلى جانب أنه يلقى المعاملة المحترمة التي تليق به، يخلع ملابسه ويرتدي «روبا» قصيرًا أنيقًا، يخرج زجاجة نبيذٍ من أجل عقلٍ خفيف الحمل، ويستحضر نفسه منتظرًا قدومها، أغلب الوقت هي لا تتأخر، ينظر من النافذة فيجدها في موعدها بسيارتها، وتنزل من السيارة، ثلاثينية جميلة الوجه جسمها متوسط يحمل عدة كيلوجرامات زائدة عن النحافة

ولكنهم موزعون جيدًا في المناطق التي تصنع الخيال لأعين الرجال، سمراء بشعر أسود ناعم، ولكن الواضح أنها غيرت اللون تلك المرة للأصفر الذهبي، تذهب إلى المدخل، وهو ينظر لها، يشعر بنبضة زائد من قلبه، وأن الدورة الدموية تحتفل بالسَّير في مارثون الجسد.. إن الرجل ليشيخ في الثلاثينيات إن لم يتذوق طعم امرأة، فالمرأة للرجل هي الغراء الذي يلصق روحه بجسده، ويعطي لقلبه الحافز لينبض كالشباب.
يقف لها على الباب، وحين تظهر أمامه يفتحه لها وهو ينظر إلى الخارج بترقُّب، تدخل وتلقي التحية دون أي تلامُس جسدي، تضع حقيبتها على منضدة السفرة، ينظر إلى جسدها وهو يصب كأسين ويذهب إليها، تأخذه منه بابتسامة، وترفعه إلى شفتيها وتنهيه في رشفة واحدة، وتحمل حقيبة أخرى.
- أنا داخلة الحمَّام.
- وأنا هستناكي في الأوضة، خدي راحتك.
تذهب وهو يجلس منتظرها، لا يشعر بالذنب كثيرًا لتلك الليلة، هو رجل عمَلِيٌّ، ويفهم أنه رجل وله احتياجاته، وعليه إشباعها بطريقة أو بأخرى، وهو لن يتزوج ثانيًا، لا، لن يكرر تلك التجربة التي كانت بالنسبة له معركة بين المنطق والهستيرية، مجهود كان يبذله لترويض ذلك الحيوان الشرس غير المفهوم بالنسبة له، هو يعرف القوانين جيدًا، الجميع يعرفها، وفي التطبيق هو سيد تلك اللعبة، فلم يستطع أن يعيش مع كائن يتغذى على المشاعر والحب الذي يتم ضخُّه بدون سببٍ وفي أي وقت، كائن يوزع التسامح في حكمه علي كل قضاياه كأنها مجانية، فقرر عقله أن يُجنِّب كل تلك الخصائص، وحددها في مهمة واحدة ويعطيها لشخص متخصص في أداء تلك المهمة، وها هي المتخصصة تخرج من الحمَّام لأداء عملها، أو هكذا هو حكمَ في قضية المرأة.

الفصل الثاني
الجميلة والكلب

الانتقام كأي شهوة إنسانية، تصل ذروتها وأنت تفتك بخصمك الذي أصابك بالألم والخسارة، وبعد أن تذهب النشوة، تأتي التوابع، وما أدارك وما التوابع.
شيماء غريب.. هي فتاة في الواحدة والعشرين من عمرها، تعمل بائعة في أحد محلات الملابس الشهيرة في شارع عباس العقاد، تعيش بالقرب من عملها في مدينة نصر بالحي العاشر، وحيدة تعيش مع أبيها وأمها، ذات درجةً مميزة في الجمال والجاذبية من بياض البشرة ودقة الأنف والعينين الواسعتين العسليتين وطول قامتها الذي هو أطول من متوسط فتيات جيلها بقدرٍ معقولٍ وتناسق جسدها الأنثوي، كل هذا يختفي خلف حجابٍ وزِيٍّ مُحتَشم لا يجسد ما تمتلك من مفاتن تتمناها العديد من صاحبات النوايا الخبيثة، محترمة مثل أهلها، خريجة حديثة من كلية الفنون التطبيقية قسم التصوير، أبوها «غريب صالح» موظف حكومي في شركة الكهرباء، ووالدتها سيدة منزل، يعيشون في جوٍ من الاستقرار والسعادة العائلية ولهم سمعة طيبة وسط المنطقة.
سعد سيد المليح.. هو شابٌ في الثانية والثلاثين، طويل القامة أسمر اللون بشعرٍ أسود ملتصق ببعضه دائمًا لاستخدامه الدائم لل» جيل» الذي لا يهتم بغسيله بشكلٍ دائمٍ فيصبح ملبدًا في أغلب الأوقات بصورة كريهة، وشارب كث بعض الشيء يستقر تحت أنفٍ غليظٍ وعينين سوداوين بهالات دائمة تحرسهما من اقتراب الجمال منهما ووجه ممتلئ بالتجاعيد وشفاه رفيعة بها شق قديم لاستخدام موس الحلاقة في الصغر ناتج عن محاولات حلاقة دائمة لظهور الشارب الذي هو علامة رجولة كان يتمنى أن تظهر مبكرًا ليبدأ رحلته في السطوة والقوة، لا يعمل شيئًا سوى أنه يساعد أباه تاجر السيارات والموتوسيكلات والتكاتك وأي شيء يسير على عجل، أبوه عصامي عانى من الفقر في بداية حياته؛ فلا يريد أن يعاني ابنه الوحيد نفس تلك المعاناة، فعمَلُ سعد هو صرف نقود والده، بالطبع أصبح هو نجم الشارع الذي يعيش فيه، وحوله مجموعة من المنتفعين من أمواله التي لا تنتهي، والتي بالطبع يتم صرفُ أغلبها على المخدرات والخمور، أو أي شيء يتبع الشهوة، قصة كلاسيكية للابن المُدلَّل الفاسد.
هي تعيش في شارع يبعد عن موقف السيارات بما يقرب من كيلو متر، تسير وسط شوارع الحي العاشر الضيقة إلى أن تصل إلى الشارع الرئيسي لتركب أي مواصلة إلى عباس العقاد، تذهب في التاسعة وتعود في التاسعة.
هو يعيش في منتصف المسافة بينها وبين الشارع الرئيسي، ولكن يجتمع مع عصابته بين بيته وبيتها، ولا يصحو إلا بعد العصر ويظهر في الشارع في العاشرة، ليبدأ يومه في البحث عن المخدرات هو وأصدقاؤه، أبوه يملك العمارة، وأعطى ابنه الشقة في الدور الأرضي كاستضافة له ولأصدقائه لتكون وكرًا للفساد، لا يهمنا كل هذا ولكننا لكي نبدأ فهم القصة يجب أن نعرف هواية سعد الأساسية.
وكما كانت الحالة الأولى، كانت الحالة الثانية، فتاة طيبة لرجل طيب، فالمنطقي ابن فاسد لرجل فاسد، بالطبع ليست تلك قاعدة، فنحن نعيش عالمَ شذوذ القاعدة، ولكن في أسوأ نتائج أن تضع الثروة في يد ذي العِلم أن يصنع رأسمالية متوحشة بلا قلب، ولكن لها نظام، أما في أحسن نتائج أن تضع الثروة في يد الجهل، سوف يصنع همجية متوحشة. أما نحن فأمام اسوأ نتائجها: الفوضى؛

فالاب الذي يعرف أن المال سيضمن له الخلود في النعيم، منظم جدًّا في تجارته ويضع بها كل تركيزه، وفي مقابل ذلك الفوضى هي الوصف الناعم لمنزله ولتربيته لابنه الوحيد، الذي يمتلك المال ولا يعرف كيف يوجهه، فيترك لأصدقاء السوء عجلة القيادة، وهو يمتلك وقودَ هذه العربة، ووقود تلك العربة لا ينضب، فسار هو وأصدقاؤه في كل طرق المحرمات، وأطبقَ بقدمه على البنزين حتى وصل بأقصى سرعة إلى أبعد ما يكون، حتى أصبح لا طريق للعودة حتى إن أراد، وفي استحالة فرضية العودة إلى الوراء، أصبحت فكرة الصواب غير موجودة، إضافة إلى ابتعادهم بشكلٍ أكبر عن مفهوم الإنسانية، ذلك المفهوم الذي يعرفنا كبشر، ليس مجرد أشباح آدمية.
حتى تلك اللحظة كُلٌّ منهم يسير في طريقه المختلف، حتى حدثَ اللقاء، لظروف تأخرت هي في العودة إلى المنزل، في وقت خروجه من مقلب القمامة الإنساني الذي يعيش فيه، يخرج من شقته متوجهًا إلى أصدقائه، يقف بينهم كالملك، من يملك العملة يمسك بالوجهين، الكل يُدين له بالولاء، فهو يعطي دونَ بُخلٍ، لِمَن يُحِب فقط، وبينما يقف بينهم تمر هي مسرعة، فيتسمر مكانه.
ينظر إليها، إلى لون بشرتها البيضاء، وحاجبيها الأسودين الثقيلين المرسومين، وعينيها العسليتين، فمها الواسع وشفتيها المتوسطتين، في عينيه جمال مثير وليس بريء، نظر إليها جميع الواقفين بنظرة تمنٍّ كعادة أهل الشهوة، بينما نظرته كانت نظرة امتلاك، كانت في عقله المريض يراها رفيقته، وبطول النظرة يتجسد له الخيال واقعًا.
يتحدث بلمعة في عينيه.
- أوبااااا، مين دي؟
يردّ عليه أحد الواقفين:
- دي شيماء، ساكنة آخر الشارع بعد القهوة شمال.
ينظر له:
- تبع حد فيكوا؟
- لا خالص، دي وحيدة وأهلها ناس محترمين، ملهاش في السكة دي.
فينظر له سعد:
- اللي مالوش يتعلم يا بابا، هي مش صغيرة.
- مش هتعرف تاخد منها حاجة، مالهاش في الجو دا خالص.
يشعر سعد بأنه أمام تحدٍّ شيق بعد تلك الجملة:
- هتشوفوا، وأنا براهن.
يرد آخر:
- بلاش الرهان اللي على أعراض الناس دي.
يرد سعد بحدة:
- وأنا قُلت هغتصبها، هي اللي هتيجي، وبمزاجها.
برغم أن الرد والحديث لم يعجب بعض الحاضرين لكنَّ أحدًا لم يعترض، الجميع استكمل وقفته كأنه لم يسمع شيئًا، لا أحدَ يريد خسارة سعد، برغم معرفتهم أنهم مهما كانوا من حقارة فعلى الأقل لن يترصدوا لفتاة وحيدة، ليست تلك المجموعة، لكن سعد مختلف، يشعر بقيمته وبقوته، يستكمل الوقفة ثم يعود إلى شقته باكرًا لينام.
***

السابعة صباحًا،
يستيقظ ويرتدي ملابسه ويقف أمام المرآة، ليس وسيمًا بالمرة لكن العيون ترى ما يريده القلب ليس ما أمامها في المرآة، وهو يري في نفسه رجولة متفجرة باكرة عن موعدها في الظهور، يرتدي ملابس غالية عديمة الذوق، وسلسلة ذهبية كالجنزير، ويقف في نفس المكان الذي مرت منه، أمامه قليلًا عند كشك للسجائر ليشتري السجائر والمياه الغازية ليستأنس بهم في انتظارها، حتى تظهر هي.
بخطوات ثابتة على أول الشارع، تسير بشيء من السرعة، حتى تقترب من الكشك، فيقطع طريقها بحركة تمثيلية:
- صباح الخير يا شيماء.
تقف في تعجب وهي تنظر له
- حضرتك تعرفني؟
- آديني بعرفك أهو لو ما أعرفكيش.
ترد بحزم:
- أفندم؟
- لا مفيش، حابب أعرَّفك بنفسي، سعد المليح.
- عايز حاجة يا أستاذ سعد؟
- سلامتك بس
تستكمل السير متجاهلة إياه فيسير بجانبها في هدوءٍ.
- تحبي أوصَّلِك في حتة؟
- لا شكرًا.
- قولي بس.
تقف مرة أخرى وترد بعصبية:
- تقدر تقولِّي إنت عايز إيه؟
يبتسم:
- ما أنا قُلت سلامتك.
ترفع صوتها في عصبية:
- غور من وشي.
وتستكمل السير بينما يقف هو ويناديها بصوت عال:
- مستنيكي يا شيماء.
بتلك الجملة التي أنهى حواره الأول معها، كان قد ضرب لها نهارها في مقتل، ليكدر صفو يومها الوليد، تذهب إلى العمل وتنساه، ولكن في طريقها إلى المنزل تجده واقفًا ينظر لها، لم يفعل شيئًا سوى النظر لها ليعيد عكرة الصباح إلى المساء، تلك هي خطته؛ أن يضغط عليها نفسيًا إلى الانهيار، تلك فقط هي البداية، أن تراه في الذهاب والعودة متربصًا لها، حتى تضطر إلى الحوار معه، أو أن يبحث عن طرق ضغطٍ أخرى.
في أول ثلاثة أيام اكتفى بالمراقبة من بعيدٍ، واليوم الرابع اختار رحلة العودة لكي تعكر منذ بدايتها فانتظرها أول الطريق بسيارة من سيارات أبيه، وأخذ يسير بجانبها ببطءٍ.

- مافكرتيش؟
تسير في صمتٍ..
- طيب راجعي نفسك وأنا خدامك، اللي هتقولي عليه هيحصل.
تسرع في خطواتها، وهو بجانبها في السيارة.
- طيب عايزة كام؟ قولي؟
تنفجر فيه صارخة:
- كام إيه يا سافل يا واطي؟! إنت إزاي فاضي كده؟!
- أنا فاضيلك بقية حياتي.
يظهر أحد المارة ليتدخل:
- ما تمشي وتسيبها في حالها يا بارد.
ينظر له من السيارة:
- شوف أكل عيشك يابا لأنزل لك.
ينصرف الرجل في هدوء ليبحث عن أكل عيشه، بدلًا من أن ينزل له هذا السعد، هذا العصر سمي عصر الأرقام لأن كل شيء يحسب له، لماذا أتدخل لفتاة لا أعرفها؟! هو لن يغتصبها في نصف الشارع على الأقل، ماذا سأجني إن تدخلت وأصبت وفقّأ عيناي؟ ما لي أنا بالأمر؟ من هي ومن هو في النهاية؟ تلك الحسابات الرقمية التي تهدف لوصول إلى نتيجة مادية تبعدنا عن مصطلحات أدبية قديمة تدعى الشهامة والجدعنة، احسبها بالأرقام وستكسب دون خسائر بسبب أخلاقيات انتهت مع سقوط الملكية في مصر، لا أحد يبحث عن المشاكل،
- عمومًا كملي طريقك، وأنا جاي تاني.
ويسير بالسيارة..
تلك المرة تقرر إبلاغ أبيها، لعلها تضع حدًا لهذا الكابوس اليومي، تسير حتى تصل المنزل، تصعد لشقتها وتذهب لوالدها في ضيق، لتحكي له عن هذا السعد والدموع في عينيها، ومضايقته الأيام السابقة لها، يرتدي والدها ملابسه في الحال، وينزل إلى الشارع، ينظر باحثًا عن أي مشتبه به، لا يجد أحدًا فيذهب إلى شباب المنطقة الذي يقف على أول الشارع بجانب المقهى.
- السلام عليكم يا شباب.
يردون السلام جميعهم احترامًا للرجل الكبير مألوف الوجه لدى أغلبهم.
- حد يعرف واحد اسمه سعد؟
- لا ياحاج، شكله إيه دا ولا ساكن فين؟
- ما أعرفش والله، بس معاه ميتسوبيشي سودا.
يرد أحدهم:
- يمكن سعد المليح.
- ما أعرفش والله يا ابني، بس يمكن هو.
- ماله يا حاج عمل إيه؟
- اللي يشوفه يقول له بنات الناس مش لعبة، واقف لبنتي في الرايحة والجاية، يرضيكوا الكلام دا يا شباب؟
يردون متفرقين:

- لا طبعًا لو قرب من هنا إحنا نقطعله رجله لما يكون مين، واحنا بقرون يا حاج ولا إيه؟!
- البركة فيكوا، اللي يعرفه يبلغه الرسالة دي من غير خناق ولا مشاكل، سلام عليكم.
يسير غريب والد شيماء وهو لا يعرف ماذا يفعل من أجل تأمين ابنته الوحيدة من هذا المجهول، هل يتبعها ذهابًا وإيابًا؟ بالطبع يمكنه أن ينتظرها على أول الطريق عند العودة وقد يدبر أمره أيضًا عند الذهاب، حتى تتم المواجهة ويرى ماذا سيفعل مع الشخص الغريب، يطرح الاقتراح على شيماء، التي تتعاطف مع سن والدها وتخبره أن إذا ظل ذلك الغريب يتبعها، سوف تخبره ليأتي معها، ويتفقان.
يومان يمران وإجازة أسبوعية، دون أن يظهر سعد، الحياة تعود إلى طبيعتها، حتى يأتي يوم السبت.
بينما هي تسير عائدة إلى المنزل في أول الطريق، يظهر من خلفها موتوسيكل سريع عليه شخصان، لم يكونا ملثمين لعدم الحاجة لهذا، كل ما فعلاه هو أنهما اقتربا منها وقام أحدهما بخطف حقيبة يدها، لتتشبث بها، ولتطير قبل أن تنقلب على الأرض وهي تصرخ، ويأخذ الحقيبة منها الجالس خلف قائد الدراجة ويطير بالدراجة والمارة يحاولون إيقافهما، ولكن مهارتهما أمكنتهما من الهروب منهم ليهربا بالحقيبة، بينما يقوم آخرون بمساعدة شيماء على النهوض، كدمات بسيطة سطحية، لكنَّ في نفسها جراحًا عميقة لما حدث، فأصعب ما يحدث للنفس أن يُؤخَذ منها شيء عنوة، أن تشعر بالضعف وقلة الحيلة وما تعبت لتملكه يأخذه شخصٌ آخر ويسير مبتعدًا، تقف وهي تستجمع نفسها وتسير إلى المنزل وهي مُحطَّمة، محفظتها وأوراقها الشخصية، هاتفها المحمول، وكتاب شعر صغير لفاروق جويدة، كل الأشياء التي تجتمع معها أغلب اليوم، ذهبت جميعًا معًا.
يسير الموتوسيكل إلى بعد الحي العاشر عند منطقة الطوب الرملي حتى يقف أمام سيارة ميتسوبيشي سوداء، ينزل منها سعد ليقابل سائقي الموتوسيكل.
- سعادة الباشا، أوامرك.
- رجالة، هو دا الشغل..
- تأمرنا بحاجة تانية؟
- شكرًا، حد لعب في الشنطة؟
- على رقبتنا يا باشا، بقَفْلِتها.
- طيب ماشي، هحتاجكوا تاني قريب.
ينطلق كلاهما بالموتوسيكل، بينما يضع حقيبتها في السيارة وينطلق إلى منزله.
يدخل إلى منزله ويضع الحقيبة على المنضدة في منتصف الشقة، يخلع ملابسه، ويقف أمام الحقيبة كالطفل الذي يستعد لفتح كعكة عيد ميلاده، يفتحها ويخرج المحفظة أولًا، بطاقة وصور شخصية لها ولوالديها وأصدقائها، يعيدها كلها مرة أخرى، ثم يخرج هدفه المنشود: هاتفها المحمول.
يحاول فتحه ليجده مغلقًا بكود، يسحبه ويصله بكابل على الكمبيوتر الخاص به، لا زال لا يقرأ ذاكرة الموبايل ولا يستطيع فتح شيءٍ، يغلق الهاتف ويفكه ليجد كارت الذاكرة الخاص به، يفتح درج المكتب ليبحث عن memory reader في لهفة واللعاب يسيل في فمه، يجده فيضع كارت الذاكرة ويضعه في الكمبيوتر.
يفتح أولًا الفيديوهات ليجدها خاوية، يفتح الصور ليجد ملفًا به حوالي 50 صورة لها، يقلبهم واحدة واحدة بتركيز في تفاصيلها، أغلبهم صور مع أصدقائها في نزهة أو حفلة، وصورة لها في الحرم

يغيِّرها بسرعة، إلى أن يصل للصورة الوحيدة التي ترضيه، ليست سوى صورة عادية في بيتٍ، تبدو أنها صورة حنة زواج صديقة، تقف هي مرتدية ملابس قصيرة ودون حجاب وتضع مكياجًا ثقيلاً وتبتسم مع صديقاتها، صور طبيعية خاصة كصور حفلات الحنة الطبيعية للبنات المقبلين على الزواج، عندما وقعت عيناه على الصورة اتسعت حدقتا عينيه..

تلك الصورة لم تكن شيئًا سوى تأكيد أن اختياره لها كان في محله، هي فتاة أحلامه التي كان يريدها، ليس طبعًا للزواج، ولكن لأغراضه الشخصية، التي تنظر إلى الإنسان ببدائية..

وهذا أكبر ظلم للبدائية، فمهما كان الإنسان الأول يجري وراء شهواته، لم يكن بكل هذا الكم من المشاعر الشريرة المعقدة التي تهدف للخراب، لم تكن أبدًا تلك هي البداية.

ينظر إلى الصورة بسعادة:

- انتي قربتي قوي..

***

تغيب شيماء عن العمل اليوم الذي يليه، حالتها النفسية لا تسمح لها بالنزول، يذهب معها والدها في اليوم الذي يليه لعمل محضر شرطة للحادث واستخراج بدائل للأوراق المسروقة، ويأخذها للغداء في أحد المطاعم كنوع من الترويح عنها، ويذهبان إلى المنزل بعد ذلك لتنام وتستعد للعودة للعمل مرة أخرى.

في الصباح تنزل من المنزل مرة أخرى، تمشي نفس الطريق، لتجد سيارة سعد مرة أخرى تمشي بجانبها وهو يطل برأسه منها:

- ماغيرتيش رأيك لسه؟

تنظر له في غضب وتستكمل السير

- طيب إنتي ليكي حاجة عندي، مش عايزاها؟

لا تلتفت له، ما حدثَ لها تلك الأيام يجعلها لا تريد زيادة حالة القرف التي تعيش بها.

يخرج لها حقيبتها ويبتسم لها.

- إيه؟

تقف وهي تنظر له والنار تخرج من عينيها:

- هات شنطتي يا حرامي.

يضحك وهو ينظر لها:

- وهتديني في المقابل إيه؟

يزداد الغضب في عينيها:

- هات الشنطة..

- تعالي خديها طيب، ولا أنزل أديهالك؟

- ارميها على الأرض وغور لا أعمل لك فضيحة.

- اركبي وأنا هديهالك.

- آخر تحذير لا هصوَّت وألِمّ ناس، ارمي الشنطة وامشي.

- أنا هديهالك، بس برضو هتيجي، وحفكرك وانتي بتتنطظي على حجري.

يرمي الشنطة على الأرض ويمشي بالسيارة، وهي تبصق عليه وعيناها تدمعان.

تمسك شنطتها وتستكمل السير وتتفحصها لتجد كل شيء موجودًا كما سرقت منها، تسير وعيناها تدمعان، هي تحت مؤامرة مختل عقليًا، يتتبعها والآن أصبح يعرف كل بياناتها الشخصية ومحل سكنها وعملها وكل شيء عنها، أصبحت تعيش في خطرٍ.
من الناحية الأخرى قرر سعد تغيير الاستراتيجية التي يستعملها، فقرر استعمال مجموعة من أصدقائه الأوفياء ليتحرشوا بشيماء في الذهاب والإياب، وقد كان..
كل يوم وهي ذاهبة إلى العمل وهي تعود، في البداية كان تحرشًا لفظيًّا، ولكن لمقاومتها بالتجاهل أصبح التحرش بالاحتكاك والملامسة، وهي ترى سعد يقف ليشاهدها من بعيد، المسكينة تترنح، سعد يبدو خطرًا ولا تريد إقحام والدها في هذا؛ فإذا لم يفلح في إنقاذها قد يموت وهو يراها تتعذب وهو لا يستطيع عمل شيء.
شهر يمر وهي صامدة.. تعيش أسود أيام حياتها، أصبحت تنتظر لحظة الخطف والاغتصاب لعلَّ هذا ينهي تلك الدوامة التي تعيش بها، بينما سعد يشاهدها من بعيد وهي تستعد للسقوط، وعندما تسقط سيكون هو في انتظارها، حتى يأتي اليوم الموعود، يوم السقوط.
ذاهبة إلى العمل صباحًا، تسير بخطوات خائفة وتائهة في طريق تعودت قدمها أن تسيره بسعادة، حتى ظهر لها ذلك الكابوس، أصبحت ضائعةً في نفسها.. إذا أردتَ أن تقتل امرأة، اقتل شعورها بالأمان وستسقط كأوراق الشجر في الخريف.
وكان هو يعلم هذا، مقاومتها الداخلية أصبحت صفرًا وهي الآن ممهدة للسقوط، سيعرض عليها عرضًا لا يمكنها رفضه، ليلة واحدة وسيتركها للأبد، أو هذا ما سوف يوعدها به، جمع الشرذمة التي كان قد أطلقها عليها من قبل حوله، ليذكِّرها بتوابع رفضها للعرض، ارتدى الملابس التي رأته بها أول مرة، ووقف معهم لينتظرها، حتى مختطفو حقيبتها بدراجاتهم، جمع لها معاناتها في شهرٍ أمامها حتى ترى كيف ستكون حياتها إن رفضته.
تظهر على أول الشارع وتسير تجاهه، لم تفكر حتى في تغيير الشارع، وبرغم أنه على غير العادة وجود كثير من المارة اليوم، إلا أنه لم يأبه وعندما رآها اخترق أصدقاءه وصار ليقف أمامها ويسد عليها الطريق، تلك المرة لم تتجنبه، لم تحاول تفاديه، وقفت أمامه وجهًا لوجه، ينظر لها بابتسامة:
- هتيجي الجنة؟
تنظر له في صمت دون كلام.
- دا أنا حبسطك انبساط، ماشُفتيهوش، ماتخافيش.
نظرتها ما زالت جامدة، لا تعكس البركان الذي يغلي داخلها، حياتها التي أصبحت في خطر، نظرة عين أبيها التي ترى ما بداخلها وهي مكتفة اليدين، تكتفي بالنظر في صمت، هل فعلت شيئًا لكل هذا؟! لم تخطئ في شيء. لماذا تدمر حياتها وأمامها شخص يريد تدمير مستقبلها؟ ومن أجل ماذا؟
في ظل صمتها يقرر أن يتقدم خطوة، يضع يده على خدها وهو يتحسس بشرتها المستسلمة له، ويغمض عينيه وهو يستمتع باستسلامها المبدئي له.
فجأة يشعر بشعور غريب في جسده يجعله يغلق عينيه للحظات، يفتح عينيه وينظر إلى الأسفل ليجدها تغرز سكين مطبخ في جزئه المفضل من جسده، وتسحب السكين إلى الأسفل لتقطع له خصيتيه، وهو ينظر لها في ذهولٍ، ثم تسحبها لتسكنها مرة أخرى في عينه، وسط ذهول أصدقائه، يجري أحدهم تجاهها فتلوِّح بالسكين أمامه لتصنع جرحًا سطحيًّا بطول صدره فيسقط أرضًا،

وتنظر للباقين بغضبٍ، ثم تقطع ملابسها وتشدّ طرحتها لتكشف عن شعرها ونصفها الأعلى عارٍ إلا من حمالة صدرها وهي تصرخ:

- ها، مين عايز حتة يا زبالة، يا لمامة يا أوساخ؟

يلتفت المارة للحدث وهم يلتفون حولها، بينما أصدقاؤه يسيرون بهدوء مبتعدين.

- ما تيجوا تمسكوا اللي انتوا عايزينوا يا ولاد ال...

والدموع تنهمر من عينيها وهي تصرخ بينما يلتف المارة حولها ويطالبونها بالهدوء.

تسقط على ركبتيها، وتسقط السكين من يدها، وهي تنظر إلى سعد الذي ثبتت عيناه بذهولهما إلى السماء، وصديقه يمسك صدره الذي ينزف، والمارة يتقدمون محاولين تهدئتها، أحدهم يخلع قميصه لكي يغطيها، في تلك اللحظة أنهت شيماء كبوسها الحالي..

لكي تفتح فصلاً جديدًا لكابوسٍ جديدٍ.

الفصل الثالث
ضمير في حالة حرجة

الشر هو الشر، ليس به درجاتٌ، حسن نيه أو فُجر، يبقى هو بصورته القبيحة، لسنا ملائكة في النهاية ولكن إذا خُيِّرت بين شر وآخر بدرجاته، فالأفضل ألا تختار أبدًا.
- شفت يا كمال الفيديو اللي الناس كلها مشيراه النهارده؟
يقول هذا الكلام دون أن يرفع عينيه عن الهاتف، كمال لا يلتفت له وهو ينظر هو الآخر في هاتفه الشخصي،
- فيديو إيه؟
- بتاع البت اللي ضربت رجل بسكينة خضار في الحتة الحساسة وبعدين ظرفته بيها في عينه، وبعدين شقت صدر واحد صاحبه نُصين.
ينظر له كمال بدهشة:
- دا مسلسل زينة وهركليز دا ولا إيه؟
- زينه مين يا عم، دي حادثة حصلت الصبح في الحي العاشر مدينة نصر، حتى بُص.
يرفع الهاتف ناحية وجه محمود ليرى الفيديو.
- هار اسود، دي أخدت منو كل حاجة وقتلته، هو كان عملها إيه؟
- ولا أعرف بيقولوا اغتصبها وبيقولوا نام معاها ومارضاش يتجوزها وبيقولو كان بيتحرش بيها.
- مين دول اللي بيقولوا يا محمود؟
- الكومنتات اللي على الفيديو.
- طيب اقعد ساكت، أبو تفاهتك.
- أعمل إيه طيب إن ماكانش في رواية معتمدة، بناخد عينة عشوائية ونتعامل مع كل الاحتمالات.
- احتمالات أمك دي.
يضحك محمود وهو يعيد عينيه إلى هاتفه مرة أخرى.
- يا عم أمي ماعندهاش احتمالات، هتقولك كلهم شمال.
- طيب يا عم أنا ماشي بقى، وابقى سلملي عليها
- يوصل يا عينيَّ.
يقف كمال ويسير خارج القهوة بعد أن يقوم بدفع حسابه والسير إلى منزله في شارع العريش بالهرم، بالنظر إلى أن الساعة الثامنة؛ فالشوارع مزدحمة للغاية، وتمتلئ بأصوات الكلاكسات والأغاني الشعبية والأضواء المبهرة،.
كمال أبو الفضل، محامٍ في الخامسة والثلاثين من عمره، شاب أعزب، بلحية وشارب خفيفين، أبيض ووسيم كلاعبي كرة القدم الأوروبيين في الملامح، هادئ نوعًا ما، افتتح مكتبه هو وصديقه محمود وافي منذ عامين، ولكنهما ناجحان في جذب العديد من القضايا البسيطة التي كفلت لهم شهرة نسبية في بعض المحاكم، مكتبهما في الحي السابع في مدينة نصر، على عكسه محمود ممتلئ الجسد، ذو ملامح طفولية رغم أنه في نفس عمر كمال، يرتدي منظارًا طبيًا عريضًا على أنفٍ مفلطح وعينين تدلان على الطيبة، متزوج عكس كمال، عندما يسيران بجانب بعضهما يشبهان

نوعًا ما لوريل وهاردي، وهما صديقان حميمان رغم وجود اختلافات فكرية، إلا أن المصلحة والصداقة تجعلان أضخم السفن تسير في أضيق الأنهار.
بينما يسير كمال يرن هاتفه المحمول، ينظر فيه، رقم عميل قديم.
- السلام عليكم، إزيك يا حاج محمد؟
- وعليكم السلام، إزيك يا أستاذ كمال وإزَّيّ صحتك؟
- الحمد لله، عال، أوامرك يا حاج.
- الأمر لله، أنا محتاجك في قضية كبيرة.
لا تظهر أي نبرة اهتمام زائد في صوت كمال الذي يستكمل الكلام بنفس نبرة الصوت، كل شخص يعتبر قضيته كبيرة حتى إن كانت تمزُّق أزرار قميصه.
- خير يا حاج تحت أمرك.
- عايزك دلوقتي تيجي على قسم أول مدينة نصر، بنت أخويا فيه وعايزك معاها.
- متهمة في إيه؟
- قتل يا أستاذ كمال.
- مسافة السكة أبقى عندك يا حاج، ولو في خير بأمر الله هيكون، السلام عليكم.
يغلق الهاتف ويصعد إلى المنزل ليرتدي ملابس مناسبة وينزل ليبدأ رحلته إلى مدينة نصر، التي تستغرق ساعة ونصف على الأقل.
جريمة قتل، تلك قضية من القضايا النادرة في حياته المهنية، رغم كثرة قتل البشر لبعضهم البعض لأتفه الأسباب إلا أنه لم تأتِه سوى قضية واحدة كانت لزوجٍ قتلَ زوجته لاشتباهه في سلوكها، ونجح في الحصول للزوج على حُكمٍ مُخفَّفٍ نظرًا لأن الزوجٍ حالته العقلية كانت محلَّ شكٍّ من المحكمة والشهود، أو هذه هي القصة التي تم تصديرها للهروب من حكم الإعدام الذي بالطبع كان مستحقًا لهذا الزوج الأخرق، وكانت نقطة تحوُّل في حياته المهنية، فبعد تلك القضية أصبح من السهل أن يترافع في قضايا جنائية أكبر حجمًا مما كان يعرض عليه، والقضية المحتملة سوف ترفع من أسهمه أيضًا إن كان بها أمل، وهذا ما سيدرسه قبل قبولها أولًا، في النهاية يوجد الكثير من العناصر التي تدرس قبل الحكم عليها.
كل تلك الخواطر كانت تجري في رأسه، وأيضًا تحدث مع محمود تليفونيًا ليخبره بما حدث ليعطيه صديقه دفعة أخرى لتلك الخواطر، الذي أيضًا حذَّره ونصحه بالتأني قبل قبول أو رفض تلك القضية.
يصل إلى القسم، زحام أمام باب القسم ويبدو أن هناك بعض المناوشات بين الواقفين على باب القسم وحراسه، يمر كمال إلى باب القسم موضحًا صفته، ليدخل إلى ساحته وهو يمشي يلمح الحاج محمد المنشود يقف مع مجموعة من الرجال، فورًا عندما يرى كمال يسرع ناحيته.
- أستاذ كمال، الله يكرمك.
يردّ كمال بحزمٍ وسرعة يليقان بمحامٍ محترف:
- قولي يا حاج محمد، إيه القصة؟
- شيماء بنت أعز أصحابي أستاذ غريب صالح، واحد كان بيتحرش بيها وعايز يغتصبها، راحت ضربته بالسكينة وقتلته في نص الشارع.
يرتفع حاجب كمال في تساؤل:

- اللي متصورة في الفيديو اللي نزل على النت الصبح دي؟
ينظر له الحاج بنظرة خجل:
- أيوه هي دي.
يخفي كمال الحيرة داخله ما بين الشعور بالإثارة أن تكون تلك القضية من نصيبه وما بين الخوف من أن تكون القضية خاسرة منذ البداية، ولكنه سيخوض الإجراءات كأنها قضيته إلى أن يظهر شيء آخر.
- إن شاء الله خير، هي فين دلوقتي؟
- محجوزة لحد ما تتعرض للنيابة بكرة الصبح، أنا عايزك بس يا أستاذ كمال تقول لنا نعمل إيه، أنا لما غريب سألني على محامي، قُلت مفيش غيرك يساعدنا فيها.
- أنا هخش دلوقتي أحاول أقعد معاها عشان نتفق هنقول إيه قُدَّام النيابة.
- طيب اتفضل.
بينما يهم بتركهم ليدخل إلى مبنى القسم، يقطعهم صوت من مجموعة تقف أمام القسم.
- حق سعد مش هيروح يا ولاد ال... ولو الحكومة ماقتلتش البت دي، موتها هيبقى على إيدينا، يعني البت دي خلصت.
ينظر كمال للحاج محمد في قلقٍ واضطرابٍ، ثم يتركه ويتوجه إلى القسم.
يدخل كمال إلى مبنى القسم متوجهًا إلى مكتب المأمور المقدم رؤوف طارق، يطلب من عسكري الخدمة مقابلة المأمور ليدخل لثوانٍ، ثم يظهر مرة أخرى داعيًا كمال للدخول، يدخل كمال إلى المأمور ليجده جالسًا مسترخيًا في مكتبه، رجل في أواخر الأربعينيات قوي البنيان وحاد الشارب، يجلس مشعلًا سيجارة وأمامه كوب من القهوة، يبدو عليه الهدوء برغم كل ما يدور خارج القسم.
- مساء الخير يا افندم.
يردُّ عليه بابتسامة:
- مساء النور، اتفضل.
- كمال أبو الفضل، حاضر عن المتهمة شيماء غريب.
- اللي دمَّرت الواد ابن تاجر الموتسيكلات، بت جريئة، أقدر أخدمك بإيه يا متر؟
- أنا بس كنت عايز أقابلها وأتكلم معاها شوية.
- ليه لا، هي بس تحت الصدمة وما أعتقدش إنها هتتكلم أساسًا، بس خليني أديك فرصتك.
ينادي على العسكري ليحضر المتهمة من الحجز، ثم ينظر إلى كمال الذي يتحدث:
- حضرتك متعاطف معاها؟
ينظر له رؤوف بابتسامة على جانب واحد من شفاه:
- الصراحة مش فارق معايا، أنا بتجيلي 50 قضية في اليوم لو تعاطفت مع كل فرد فيها يبقى أجيب ب 200 جنيه كلينكس وأقعد أعيط جنبهم، وبعدين أنا ما أعرفش مين ظالم ومين مظلوم، وبرضو مش فارق معايا الصراحة، الناس بقت بألف وِشّ، أنا شُغلانتي مدير لوكاندة الأوباش، آجي أحجزهم لحد ما يغوروا لنصيبهم، هُمَّا مشكلتي لحد ما أصدَّرها لحد تاني، هي يمكن القضية دي مختلفة شوية.
- إزاي سعادتك؟

- التحريات الأولية بتقول إن المتهمة حسنة السمعة هي وأهلها، وإن المجني عليه سيء السمعة وتحت تأثير المخدرات بشكل دائم، بس الأساس هي إنسانة عادية وأهلها ناس في حالهم، والحيوان -الله يرحمه- أبوه تاجر كبير ووحيد أبوه، فهتبقى معركة، أديك شايف القسم بره عامل إزاي.
ينظر كمال إلى رؤوف في تعجب ويتحدث
- أنا آسف يا افندم بس أنا شايف حضرتك برضو مش همك اللي بيحصل بره القسم.
ينظر له رؤوف رافعًا كفي يديه فقط إلى الأعلى وهو يبتسم ببرود:
- ناس ابنهم صايع ومدمن وبيعاكس واحدة راحت قتلته زعلانين على ابنهم الغلبان، وناس بنتهم ماشية في الشارع حطة في شنطتها سكينة وأول واحد عكسها شقت حاجاته وجابت مخه من عينه ولا جزَّار العيد وزعلانين على بنتهم الغلبانة، يا كمال بيه الناس اتجننت، الصراحة طول ما هُمَّا بره اللوكاندة يولعوا، لما يموتوا بعض يبقى يخشوا ياخدوا مكانهم الطبيعي، لكن غير كده خليهم، أهُم بيطلعوا العُقَد اللي جواهم في بعض، عملية تفريغ نفسي يعني.
يبتسم كمال لرؤوف تلك المرة:
- صراحة منطق سيادتك رغم قسوته، بس مقنع ومنطقي.
- على رأي سيادته الله يمسيه بالخير، خليهم يتسلوا.
نقرتين على الباب، يدخل العسكري ومعه شيماء:
- المتهمة يا افندم.
ينظر رؤوف إلى كمال:
- روح اقعد معاها على الكنبة اللي هناك دي، معاك عشر دقايق.
يشكره كمال ويقف لينظر إلى شيماء التي جلست على الأريكة التي بجانب الباب، نظر إليها كمال نظرة متفحصة ليحصل على الانطباع الأول، كانت عيناها متورمتين من البكاء ولكن هذا لم يخفِ جمالها، ملابسها تدل على ذوقٍ ممتازٍ ولكنها من الجلوس في الحجز أصبحت مجعَّدة وغير نظيفة، تنظر بنظرة حزن تأتي من أعماق القلب، لا أثر للأمل في عينيها.
- شيماء، أنا كمال أبو الفضل المحامي بتاعك في القضية، ومحتاجك تساعديني عشان أساعدك، الأول بس، إنتي عاملة إيه في الحجز؟
تنزل دمعه من عينيها، لا لشيء غير لكلمة الحجز، مكان لم يكن في خريطة عقلها للمستقبل زيارته أبدًا.
- حد عملِّك حاجة يا شيماء، حد ضايقك؟
ترد والدموع تتسلل من عينيها:
- لا خالص، بالعكس، دول كويسين معايا.
- طيب الحمد لله، أنا هسألك في كام حاجة في السريع عشان نتفق هنقول إيه قُدَّام النيابة، مهم جدًّا الكلام دا يا شيماء فركزي معايا.
تهز رأسها بالموافقة فيبدأ هو في الكلام بسرعة:
- الواد دا اتعرضلك قبل كده؟
- آه.
- كتير؟

- آه، وكان بيمشي ورايا بالعربية وكان بيسلّط عليَّ أصحابه يتحرشوا بي وهو واقف من بعيد، وبعت اتنين على موتوسيكل سرقوا شنطتي وكان بيستناني كل يوم على أول الشارع.
وتنهمر في البكاء بعد أن استرجعت ذلك الشهر الأليم الذي دمَّر حاضرها وعلى وشك تحطيم المستقبل،
- شيماء، شيماء معلش، امسكي نفسك، وعرفتي منين إنه بعت ناس سرقوا شنطتك؟
- بعدها لقيته ماشي بالعربية ورمهالي.
- طيب تعرفي شهود على اللي كان بيعمله دا؟
- آه، كان كشك سجاير أول الشارع صاحبه شافني كذا مرة، وكشك تاني على أول الشارع ما أعرفش شافني ولا لا بس كان بيستناني بالعربية على أول الشارع عنده برضو، مشهورين وممكن أقول لك مكانهم بالظبط.
يمسك كفيها بكفيه ويشدها لتنظر له بتعجب واستنفار.
- بصي يا شيماء وركزي معايا، بكرة هكون معاكي في النيابة، هتقولي كان بيعاكسك وتحرش بيكي جسديًا كذا مرة، ولما رفضتي هددك بالخطف بعربيته، وقولي بيانات عربيته أنا هحاول أجيبها قبل الصبح، وهددك بالاغتصاب لو ماجتيش معاه بيته، وعقبال ما أجمع بيانات أكتر، قولي إنك كنت خايفة ليخطفك فَكُنْتي شايلة سكينة في الشنطة ولما حاول الاعتداء عليكي دافعتي عن نفسك، وضربتيه بالسكينة وإن انتي ماكنتيش في وعيك وانتي بتضربيه خالص، وكوني كلك ثقة وانتي بتتكلمي، مافيهاش هزار لو عايزة تطلعي من هنا.
تهز رأسها.
- حفظتي الكلام، عايزك تكرريه الليل كله لحد ما تتعرضي على النيابة.
- حاضر.
- عايزة حاجة؟ أقول لأهلك على أي حاجة يجيبوهالك؟
تنظر له بألمٍ:
- هو أنا قاعدة هنا كتير؟
سؤال ليس له إجابة بالطبع.
- إن شاء الله لا، بس شدي حيلك بكرة.
تهز رأسها وهو يشد على يدها ويقف وتقف هي الأخرى، بينما ينادي رؤوف العسكري ليعيدها إلى الحجز مرة أخرى، ويتوجه كمال ناحية رؤوف.
- شكرًا يا فندم.
- على إيه، مفيش حاجة خالص، وربنا يوفقك في القضية.
- إن شاء الله خير.
يبتسم رؤوف مرة أخرى وهو يرفع حاجبه الأيسر، فيستطرد كمال:
- إيه، مش هنجح فيها يا افندم !
- الصراحة، أنا ممكن كإنسان أكون ميَّال إن البنت تطلع براءة وانت تكسب والنهاية تبقي وردي، ودا الطبيعي يحصل لأن الواضح للعين المجردة إنها مظلومة.
ثم تختفي من وجهه الابتسامة وهو يشعل سيجارة وينظر إلى دخانها

- بس لا، الدنيا ماتمشيش كده، أنا مابيفرقش معايا الناس ولا القضايا عشان بقالي كتير شايف حاجات سودا بيعملوها في بعض، بس أتعاطف؟ لا، بصراحة التعاطف بقى للهبل، الشرير بيلتف على القانون عشان شره، والطيب بيلتف على القانون عشان حقه، فبقى الطريق حارة شمال بس، فإنت هتاخد طريق شمال عشان تنقذها، وهُمَّا هياخدوا طريق شمال عشان يدمروها، فالشمال أكتر هيكسب، وانت معاك الحق فطريقك بيرمي على اليمين شوية.

يسكت للحظة ويستطرد:

- من الآخر لا، البت دي هتاخد حكم محترم، وانت حتخسر القضية، والرجل أبوها الغلبان اللي بره دا يا هيموت يا هيتشل، شفت الفيلم دا كتير قوي في القسم دا.

ينظر له كمال نظرة ذات مغزى:

- طيب لو كسبت القضية؟

تعيد الجملة الابتسامةَ بشكلٍ أكبر لرؤوف الهادئ الذي كلما ابتسم زاد وقاره.

- آه، إنت لسه صغير وجواك أمل، بُص يا كمال، لو تسمح لي أناديك كده، بما إنك دخلت تحدي فأنا أوعدك إن جلسة نطق الحكم هبقى موجود، ولو كسبت بطريقة أو بأخرى هنطلع من المحكمة على غداء وقهوة، ولو خسرت، مش عايز منك حاجة، كفاية اللي إنت هتكون فيه.

يمد كمال يدَه لرؤوف الذي يقف بهدوءٍ ويسلم عليه.

- مستني حضرتك يومها.

- خُد نمرتي عشان تفكَّرني، وأهم من كده عشان أنا أفكرك.

لم يفهم كمال المغزى، ولكنه هزَّ رأسَه بتحية لرؤوف الذي ردَّها بدوره، ثم انصرف كمال إلى الخارج،

يخرج كمال ليجد محمد وغريب يقفان على جانب باب مبنى القسم، يتحدث محمد:

- إيه يا أستاذ كمال الأخبار؟ دا غريب والد شيماء.

يسلم كمال على غريب ويواسيه قبل أن يتحدث:

- أنا قعدت معاها وهكون بكرة الصبح معاها وهي بتتعرض على النيابة، وإن شاء الله خير.

ينظر له غريب بحزن شديد:

- أنا خايف الصراحة، أبو الكلب دا تقيل، ومش هيسكت.

- ماتخافش يا حاج، بكرة خير.

يتحدث كمال قليلًا معهم ثم يسير خارج القسم متوجهًا إلى مكرم عبيد حيث موقف سيارات الهرم وهو يسير يخرج هاتفه ويتصل بمحمود:

- شُفت يا ابني، القضية اللي جتها دي طلعت قضية الفيديو.

- يا رجل، امسك فيها بإيدك وسنانك، دا انت هتبقى نجم كبير على كده.

- لا مش سهلة كده، أبو الواد طلع تاجر كبير، واحد جامد يعني.

- طيب بكرة نتقابل في المكتب ونفرد القضية كده ونظبطها.

- بكرة هكون مع البنت في النيابة، بص أنا مروح دلوقتي لما أوصل أكلمك، سلام عشان هعدي الشارع

يغلق الهاتف ويتخذ طريقه إلى منزله، وهو ينتظر الغد من أجل المواجهة الأولى.

***

جلس سيد المليح الساعة الثانية عشرة منتصف الليل في مكتبه بمحله بمنطقة التبة في مدينة نصر، محل كبير الحجم دورين، الدور الأسفل معرض وقطع غيار والدور الأعلى نصفه مكتبه الكبير والنصف الآخر للعاملين معه، هذا دلالة على مدى ضخامة مكتبه إلى جانب قطع الأثاث الدمياطي الطراز الذي رغم مرور السنين إلا أنك عندما تنظر له تشعر بطعم الدهان في حلقك، وبدلاً من أن يضع خلف مكتبه إحدى اللوحات التي تحمل آيات قرآنية، جعل خطاطًا يملأ الحائط خلفه بآياتٍ قرآنية بطول وعرض الحائط، بالطبع المعوذتين لمنع الحسد وبعض آيات جلب الرزق وإقرار النعم، كان قد وصل من المشرحة بعدما رأى ابنه الوحيد مفارقًا الحياة، بوجه مخيط لجرح نسف معالم وجهه وأخذ روحه وأنهى سلالة سيد من الوجود، يتذكر ذلك المشهد وهو ينظر لسقف الغرفه الذي كاد أن يحترق من شرار عينيه، كان هو شخصيًّا يتمنى هذا، أن يقع السقف عليه ليصطحب ابنه إلى النهاية.
كان يُشبه ابنه في ملامحه، ولكنه كان ضخم الجثة، كرشه يحمل ثلث وزنه، غليظ الوجه والملامح بقصة شعر أنيقة في أحلامه هو فقط، كان يمتلك مهارات التفاوض والمعرفة النادرة في كيفية إخراج القرش من جيوب البشر، بالرغم من غلاظة ملامحة التي تسير جانبًا إلى ملابسهِ سيريالية الألوان ويصطحبان بعضهم إلى شخصية من شخصيات رواية «أَلِيس في بلاد العجائب» إلى أن هذا كان مناسبًا جدًّا للفئة التي يتعامل معها والعميل النهائي الذي يرى في شخصية المعلم أو الحاج سيد مظهر التاجر الرائع الذي يريد السعادة لعملائه بابتسامة هوليوود التي اشتراها من دكتور أسنان باع له الجاذبية كما يبيع هو التكاتك، يمتلك خاتمًا ذهبيًّا عليه أيضًا بعد الآيات القرآنية، لكن كل هذا لا يهم اليوم، كل هذا سرابٌ، كل هذا المجد سيذهب إلى التراب بعد زواله هو شخصيًّا، مات وريث العرش ورفيقه في رحلة الصعاب، قتلته شابةٌ مستهترة، مهما فعل بها سعد، هو لم يأخذ منها قطعة لنفسه، مهما كان يريد منها، لم يكن سينهي حياتها، وهو يعرف أن ابنه تاجر مثله، لم يكن ليأخذ شيئًا دون أن يسدد الثمن المطلوب، ولا يوجد شيء ليس له ثمن في الوجود كله، عندما دخل طلب أن يكون وحيدًا من صبيانه والعاملين في المعرض، إلا أن رشدي عز، تاجر آخر وصديق شخصي له، يقطع عزلته ويدخل إلى مكتبه.
- البقاء لله يا حبيبي.
ينظر له سعد نظرة خاوية حزينة:
- أنا ابني مات يا رشدي.
يأخذه رشدي بالحضن وهو يربت على ظهره:
- سعد ماكانش ابنك لوحدك يا سيد، دا كان ابني أنا كمان.
يعصره سيد والدموع تهرب من عينيه:
- أنا ابني مات يا رشدي، ملحقتش أفرح بيه.
- في الجنة يا حبيبي، في الجنة.
يربت عليه وينتظره حتى يهدأ ويتركه سيد ويجلس خلف مكتبه مرة أخرى، وغم أنه لم يذرف سوى بضع دموع من عينيه إلا أنه سحب عشرة مناديل من علبة المناديل الخشبية المدهبة الموجودة على مكتبه، وأخذ يمسح دموعه بشكلٍ مُبالَغٍ فيه، وهو ينظر للسقف في شكل تمثيلي، ليس هذا هو حزنه، ولكن كتاجر يبيع أي شيء ليبقى.. يبيع شكل حزنه الزائد لصديقه، الذي يشتري منه ويرضيه.

- ماتعملش في نفسك كده، صحتك يا صاحبي.
- وإيه لزمتها الصحة، هعيش لمين.
- إهدا بس وربنا هيعوضك ويجبلك حقك.
- مافيهاش حق يا رشدي، هو ابني هيرجعلي، حقي إنه زي ما مات، اللي قتله يموت، ودا برضو مايشفيش غليلي.
ينظر له رشدي بغضب:
- دي بت فاجرة وقادرة، ولو ماخدِتش اعدام من الحكومة نوصلهولها إحنا لحد البيت.
- أنا عايز أشوفها على حبل المشنقة وأنط أمسك في رجلها وأتشعلق لحد ما الحبل يطيَّر راسها، السافلة اللي كانت ماتطولش ضفره.
- إن شاء الله يا حبيبي، ماتخافش.
يقف سيد ويسير ناحية رشدي ويمسكه من كم قميصه.
- أنا عايزك تساعدني نتأكد إن الإعدام لابسها لابسها، آخر حاجة أفكر أعملها إني أوسَّخ إيدي بدمها.
ثم يقف ويحملق في الفراغ بينما يقف رشدي بعد أن سحب يده من يد سيد، ثم ينظر إليه وهو يتحدث وفي عينيه نظرة جنون تشتعل:
- الإعدام ليها رحمة، أنا نفسي في مؤبد، عشان تكمل حياتها تموت كل يوم في سجن النسا، تخش وماتطلعش منه غير وهي وليَّة عجوزة كركوبة وكل اللي يعرفوها نسيوها أو ماتوا وتفضل تتلطم وتموت كل يوم شحاتة على باب جامع أو تبيع نفسها على كبر عشان تاكل فتافيت عيش من على الأرض يا رشدي، أنا عايزها تتمسح من الدنيا يا رشدي.
ثم يسكت للحظات ويتمتم:
- أنا عايز ابني يا رشدي.
يساعده رشدي في الجلوس محطَّمًا وعيناه تدمعان مرة أخرى ويسحب كومة مناديل أخرى في غلٍّ ليمسح بضع دموع أخرى في عينيه، بينما يتحدث رشدي:
- ماتقلقش، حق ابنك عندي يا سيد، أنا اللي هجيبهوله، وهتشوف.
ينظر له سيد بإطراء لموقفه معه، ثم تتغير ملامحه وهو يقف ويشير ناحية رشدي:
- عزا سعد هيتعمل بعد الحكم يا رشدي، بعد الحكم، عشان البت دي لو ما انتهتش، أسلخها بإيدي زي المعزة وأعلقها هنا على باب المحل.
***
- تيجي الجمعة اللي جاية؟
- تحت أمرك، بس كلمني أكد عليَّ.
تدخل مروة للاستحمام بينما يظل عزت مسترخيًا في الفراش يستمتع بفترة ما بعد النشوة، حين تسترخي العضلات المُرهَقَة مع العقل المنبسط المنتشي، تخرج وترتدي ملابسها، يقف ويسير ويأتي بظرفٍ مُغلَقٍ كان قد حضَّره مسبقًا ليعطيه لها وهي تبتسم وتعده بالجديد الجمعة القادمة ليحمِّس نفسه من الآن، وترحل كما جاءت، بينما هو يملأ حوض الاستحمام بالماء ويأتي بزجاجة النبيذ إلى الحمَّام ويسترخي في الماء الساخن الذي يفكك عضلاته عن بعضها البعض.
الساعة العاشرة الآن

منذ فترة والحياة تسير على تلك الوتيرة، محكمة وعمل، ابنه الجمعة صباحًا ومروة أو إحدى زميلاتها مساءً، قهوة مع مكرم بعض أيام الأسبوع، ليس هناك من جديدٍ، ولكن هل تحتاج الحياة لجديد؟! وما الجديد الذي يحتاجه، يمكنه أن يضيف يومًا آخر لمروة في منتصف الأسبوع؛ فمروة تجيد ما يحتاجه أيُّ متزوج من زوجته ولا يجده، وتلك هي إحدى عجائب الجنس، فلا يمكنك مصارحة أقرب الناس إليك برغباتك فيه، ولكن يمكنك طلبه من شخصٍ التقطته من الشارع ولا يمارسه بأي مشاعر ويأخذ أموالًا في المقابل، إنه الهبل الذي ورثناه من عاداتنا وتقاليدنا العريقة، أن نكون مع الغرباء بأحلامنا بينما نعيش في الواقع بفخرٍ مُصطنَع، ولكن عزت ليس هذا الشخص، فهو يعرف ماذا يريد ويطلبه، وإن لم يشعر بالراحة يغيِّره، على المنصة يجلس كملَكٍ، عندما شعر بأن الزواج لا يُلبي مطالبه قرر إنهاءه عندما لاحت له الفرصة، وكذلك لم يقطع علاقته بابنه الوحيد وحافظَ على علاقته به، هكذا من منظور عزت يكون الرجل؛ أن يلبي التزاماته بنفس مقدار تلبية احتياجاته، لا شيء يسبق شيئًا.

إذًا الخطة القادمة أن يضع في جدوله يومًا آخر للمتعة، ويفضَّل في منتصف الأسبوع، وقد يضيف يومًا لكريم أو سفرًا أو شيئًا جديدًا، ولكن ليس الآن، فلتستمر الحياة كما هي وتكون تلك الحلول جاهزة للتدخل إن سنحت الفرصة، الملل يأتي كضيفٍ ثَقيلٍ في المنتصف، ولكنه يقضي عليه بطريقة أو بأخرى.

بعد أن فرغت زجاجة النبيذ يقوم بخطوات بطيئة ليجفف نفسه ثم إلى الفراش لينام نومًا يتمناه الجميع.. نومًا عميقًا.

***

يوم الاثنين

- مساء الخير

مكتب كمال ومحمود، بينما هم جالسون تدخل المكتب شابة في أواخر العشرينيات ، محجبة ومتوسطة الجمال، بملابس تبدو عليها الأناقة ومنظار طبي عريض قيِّم، تدخل المكتب لتجد كمال ومحمود يقفان مع ساعي المكتب، يتناقشان في نوع وجبة الغداء اليوم، بينما قاطعتهما تلك الجميلة، ليرد محمود باهتمام:

- مساء النور.

- أستاذ كمال أبو الفضل؟

يردُّ كمال تلك المرة:

- أيوه يا افندم، أنا هو، إزاي أقدر أساعد حضرتك؟

- أنا هبة إسماعيل، من جمعية امرأة شرقية، حضرتك تسمع عنها؟

- أعتقد، طيب اتفضلي يا افندم مكتبي.

يسير كمال إلى مكتبه وهي وراءه وبعد أن تدخل يغلق الباب ويتجه إلى المكتب متحدثًا:

- أعتقد دي جمعية بتاعة حقوق المرأة على ما أتذكر.

- إحنا بنطالب بحياة أفضل للمرأة، ومهمتنا العثور على السُّبُل عشان الناس تتفهم قيمة المرأة الحقيقية المستقلة، وإن المرأة مش مجرد تابع، وكذا عضوة من قيادات الجمعية أعضاء في مجلس الشعب ودورهم نقل تصور الجمعية للمجلس الموقر.

ينظر لها كمال باهتمامٍ وحيرة في ذات الوقت.

- تمام، وأنا أقدَّر الدور دا جدًّا، ممكن توضحي لي إزاي أقدر أكون عون للجمعية.
تنظر له بنظرة تقدير لحسن اختيار كلمات الرد وهي تتكلم بيسرٍ وهدوءٍ تلك المرة بدلًا من طريقتها في شرح دور الجمعية التي كانت تشبه البيان العسكري.
- قضية شيماء غريب، إحنا عرفنا إن هي وكِّلت حضرتك للقضية دي، كلامي سليم؟
- سليم وحضرت معاها تحقيق النيابة، والموضوع هيتحوِّل للمحكمة.
- تمام، إحنا كل اللي طالبينه منك إنك توافينا بكل الأحداث وتطورات الموضوع عشان القضية تهم الجمعية جدًا.
- طيب ممكن أسأل ليه القضية دي بالذات؟ في قضايا كتير مشابهة.
- إحنا بنطالب بإعادة النظر في عقوبة جرائم العنف ضد المرأة، والقضية أهميتها إنها أخدت شهرة كبيرة بسبب رد فعل المجني عليها، المفروض إنها موجودة كمتهمة في قضية قتل، برغم إنها بالنسبة لينا ضحية، عشان أكون صريحة معاك، إحنا هنعمل حملة لمساندة شيماء، والقضية هتاخد شهرة كبيرة، واحنا هنساعدك، وممكن تطلع في التلفزيون كمان، بس تدينا كل المعلومات والأخبار مش أكتر، وهيفضل بيني وبينك اتصال دائم، بس، عندك مانع؟
يردُّ كمال بينما عيناه تلمعاه من فرط السعادة، لكنه يحاول الحفاظ على ثبات نظراته وشكله من الخارج:
- لا طبعًا مفيش مشكل، بالعكس دا شيء يشرفني.
- تمام اتفقنا، هي إيه الخطوة الجاية؟ القضية اتحولت للمحكمة؟
- إحنا خلصنا تحقيقات النيابة والشهود، في ناس شهدوا في صالحها وفي ناس ادعت روايات ضدها، والنيابة رفضت الإفراج عنها طبعًا، فالمسكينة مرمية في الحبس، والمفروض إن إحنا مستنيين أول جلسة.
- طيب كويس، وعرفت مين القاضي اللي هيمسك القضية؟
- المفروض إن إحنا مستنيين نعرف النهارده.
في تلك اللحظة يقتحم محمود المكتب وعلى وجهه كل الهلع الذي في الدنيا.
- كمال.
ينظر له كمال مفزوعًا هو الآخر:
- إيه في إيه؟
- اتحدد ميعاد الجلسة الأولى لقضية شيماء والقاضي اللي هيمسكها.
يظل وجه كمال بلا حركة حتى يستكمل محمود المفاجأة:
- عزت الدويني.
كل الأمل اختفى، كل كلمات الضيق التي تتردد في تلك الأوقات حضرت في رأس كمال، كل الكلمات البذيئة الاعتراضية وكل اللعنات التي ذُكِرَت منذ الجاهلية، مرت عبر رأس كمال ولكنه لاحظ وجود هبة فقرر ابتلاعها بصعوبة واكتفى بنظرة بلاهة على وجهه بينما نظرت إليه وهي تنتظر أن يتحدث ولكن لا شيء يمحو أثر الذهول من الحظ العثر.
يقطع محمود الصمت بحوار نفسي بصوت عالٍ:
- دا كده البت هتاخد مؤبد.
ترد هبة:

- أنا مستغربة، إزاي تروح للرجل دا، مش دا بتاع قضية سمير محروس؟
ينظر لها كمال بخيبة أمل بعد الحماسة التي كان بها:
- للأسف.
ويتركها ويسير خطوتين ناحية النافذة، وهو ينظر بخوفٍ.
القضية أصبحت أكثر تعقيدًا، والحلم يبعد..
الأمل في الشهرة ونجاح القضية يمتطي سلحفاة ويسير به في بطءٍ أمام كمال العاجز عن اللحاق به.

الفصل الرابع
الدموع لا تحرك كفة الميزان

ليس الشيطان سبب كل خطايا البشر، لكنهم سوف يعلقونها عليه دائمًا فقط لأنه لا يستطيع التحدث والرد.
يقوم عزت بإيقاف سيارته أمام المحكمة ويجري السايس أمامه برهبةٍ مُفتعَلةٍ ليساعده بتوجيهاتٍ لا يحتاجها عزت في الأساس، هذا أول شخص يقابله عزت في وصوله إلى حرم المحكمة.
وكالعادة، ينظر عزت من النقطة التي يقف بها ليرى الساحة التي أمام المحكمة والسلالم الطويلة إلى مدخلها ويسرح بنظره إلى الردهة الأساسية مرورًا بمكاتب الموظفين ثم الحمامات ثم قاعات المحكمة وصولًا إلى مكتبه، فلا يشعر إلا بالاشمئزاز.
قد يختلف عليك الأمر في الشارع، قد تجد نفسَك لا تستطيع الحكم على البشر من وجوههم أو أسلوبهم في الكلام، قد يختلف عليك الأمر فِيمَن هو غليظُ الوجه وطيب القلب، أو من هو سهل الملامح ومكَّار، قد لا تعلم أن تلك المحجبة أمامك فتاة ليل تزيد من تنكرها، أو أن تلك المتبرجة تعرف الله أكثر منك.. إلا في المحكمة.
جميعهم أوباش في نظر عزت، المجني عليهم والجناة، المحامون ومساعدوهم، المرتزقة الذين يقفون أمام المحكمة بآلات التصوير والأوراق وشهود الزور والبلطجية، موظفو الأرشيف وعمال النظافة والسعاة وحاملو صواني الشاي الذين يصطادون المغيبين بحجة معرفتهم للسكك المخفية، الضباط والعساكر الذين يراقب أغلبهم الموقف في استرخاء وهم يتابعون تلك المنظومة في صمتٍ..
إذا كانت الناس تذهب للمعابد من أجل الدين والحق، فكل من تحت سقف هذا المعبد كافر.
يصعد عزت بهدوئه المعهود، تاركًا عبق وقاره يضرب من يراه ويعرفه، وهو ينظر إلى الجميع بهدوءٍ، وبداخله الاشمئزاز ينبِضُ، وبينما يظهر في أول طُرقة مكتبه يهرع الساعي لعمل قهوته الصباحية، ويدخل مكتبه بهدوءٍ، يجلس على كرسيه، أوراقه مثلما تركها آخر يومٍ، المكتب نظيفٌ، كل شيء كما تعوَّد عليه.
خمس دقائق ونقرتان على الباب، ويدخل الساعي ومعه فنجان قهوة، يمسك الفنجان ويترك مكتبه ويسير إلى النافذة ليسرح بنظره في الفراغ.
نقرتان على الباب ويظهر رامز بدير، قاضٍ زميلٌ لعزت منذ فترة طويلة.
- صباح الخير يا عزت بيه.
يلتفت عزت إليه:
- رامز بيه، اتفضل يا افندم.
- لا أنا عندي قضية، أنا جيت بس أبارك لحضرتك على قضية فتاة العاشر، قضية كبيرة والعيون كلها عليها، ربنا يعينك ويوفقك يا افندم.
يرتفع حاجب عزت:
- أنا ما أعرفش والله، إنت أول واحد يبلغني الخبر دا.
- طيب كويس إني أكون بُشرة خير.
- حضرتك دائمًا يا رامز بيه.

- شكرًا لذوقك، أستأذنك.
- اتفضل.
ويلتفت رامز ويترك المكتب، بينما لم يترك ذلك الخبر أي تأثير على عزت، لم يفرح لم يندهش، فقط التفت وعاد إلى النافذة وسرح مرة أخرى، بالنسبة له قضية، مثل أي قضية، سوف يُطبِّق ما يمليه عليه القانون وضميره، لا شيءَ جديدٌ، وهو لا يعرف كيف ستغير تلك القضية حياته.
***
تنظر شيماء إلى غرفة الحجز التي أصبحت عضوة فيها منذ عدة أيام، والمرافقات لها اللواتي أصبحن يتغيرن من وقتٍ لآخر بينما هي تجلس تشاهدهن دون أن تتكلم إلا عند الحاجة، وتتأمل الوضع المزري الذي لم يخطر في أحلامها أن تؤول إليه.
تفكر في حياتها التي كانت سهلةً وسَلِسةً، وتتذكر كيف كانت تنظر إلى المستقبل في أملٍ، وأن تكشف لها الأيام عن بطل قصة حبها المستقبلي الذي سيصبح زوجها وتستكمل حياتها معه في سعادة، أن يحملها زوجها ويسير على شاطئ أحد المدن الساحلية وقت الغروب في شهر العسل، أن تحمل طفلها الأول بعد ولادته وتنظر له في حنانٍ، وتراه يسير خطواته الأولى، ويكبر بين يديها مع حب زوجها المنتظر، كانت تدخِّر الكثير من الذكريات المستقبلية في وجدانها إلى أن ظهرَ هذا الخطَرُ المُحقَّق، الذي يتمثل في رغبات مجنونٍ قرَّر أن يحصل على ما ليس له عنوة.
لكن وسط تلك المتاهة العقلية تلوم نفسها، هل ما فعلته كان صحيحًا؟ هل كانت يجب أن تصبر من أجل حلٍّ يأتي من السماء ليزيح هذا الشيطان من طريقها؟ كل ما تذكره أنها خافت من تطور أحلامه لتصل إلى درجة الاختطاف، فحملت تلك السكين لأيامٍ في حقيبتها، وعندما جاء اليوم المشئوم، ووقف رسميًا في طريقها، لم يعد هناك مجالٌ للعقل، في اللحظة التي قرَّر أن يستبيح وجنتيها كخطوة أولى، أو رقعة أولى في أرضها الذاتية التي جاء لاستعمارها وأخذ خيرها وكل ما يجول في أحلامه منها، قررت ردعه بطريقة وحشية تليق بما كان يريده منها، أعز ما تملك أمام أعز ما يملك، ولكن للأسف تمادت وسلبته كُلَّ ما يملك، هل كانت تقصد قتله؟
بالطبع كانت تتمنى موته، ولكن ليس على يدِها، عندما كانت تضربه كانت خارج نطاق التحكم في عقلها، كل ما كانت تأمله أن يتركها لحالها، ولكن في منطقة صفر الأمان يتعامل كُلُّ عقلٍ خارج نطاق التحكم فينتج قرارات غير مفهومة، هي في حياتها لم ترفع «شبشبًا» في وجه صرصار، والآن.. ماذا فعلت..!
كانت يمكن أن تضرب نفسها بالسكين، ولكن لماذا؟ لماذا على الضحية أن تدفع الثمن؟ وأن يدفع أهلُهَا ثمنَ فقدانِ ابنتهم الوحيدة بانتحار مُخجِلٍ، لم تكن ستفعل ذلك خوفًا من الله وخجلًا من دموع والديها على كفنها.
أصبح عقلها يجلس على حافة جبل الجنون، ويؤرجح قدميه بقوة، ينظر إلى قاع الجبل ويبتسم.
- بس جدعة يا بت عجبتيني.
تنظر شيماء إلى الصوت فتجد شابةً تبدو في العشرينيات تجلس بجوارها، لا يظهر عليها توحش المسجونين المخضرمين، ترتدي ملابس ليست برخيصة من خبرة شيماء الواسعة، ويدل تبرجها أنها كانت في حفلة أو شيء مشابه قبل دخولها الحجز.
- حضرتك بتكلميني؟
تبتسم الضيفة الغامضة:

- حضرتك؟ لا، نطوَّر ألفاظنا شوية للناس تاكلك هنا زي البسكوت، اسمها (إنتي بتكلميني)، ويفضل (إنتي بتكلميني ليه يا بت شوفي أكل عيشك بعيد يا ماما) خليكي ناشفة وخشي في اللي يكلمك.
تستكمل شيماء النظر إليها في صمت فتستطرد الضيفة:
- ولَّا حتى لو نشفتي، بالبصة اللي في عينيك دي ولا تخوِّفي بطة حتى.
شيماء تتجمد وهي تبحث في قاموس عقلها على ما تستطيع الرد به أو مقاطعة الحديث، فلا تجد شيئًا.
- طيب أعرَّفِك بنفسي، زينب فرحات، قوليلي زيزي.
تجد شيماء أول ردٍّ مُحتمَلٍ.
- شيماء، شيماء غريب.
- عاشت الأسامي، مش إنتي اللي قتلتي الواد اللي كان بيعاكسك؟ أنا لما شفت الفيديو استجدعتك جدًا
شيماء التي علمت مسبقًا بانتشار الفيديو، تزيدها تلك الذكرى حزنًا.
- إنتي ضربتيه في الحتة اللي جايبة القرف والمشاكل لمصر كلها نسوان ورجالة، ما حدِّش اتجرأ قبل كده وعملها الصراحة، إنتي المفروض تكوني رمز ويعملوا لك تمثال.
تنظر إليها شيماء بدهشة فتستكمل زينب بابتسامة:
- إنتي مستغربة؟ ستات كتير بعد الضغط تسلِّم لما تحس بالخطر أو تتخطف، أو حتى تحت إغراء الفلوس، هو كان عايز يتحكم فيكي لكن إنتي طلعتي أسد، وشِلتي دراع التحكم بيه قُدَّامه هو وأصحابه، السكينة دي المفروض تتعرض في مزاد، ويكتبوا عليها «سيف شيمو مُحرِّرة نسوان العاشر».
تبتسم شيماء لأول مرة منذ دخولها الحبس، فتبتسم زينب أيضًا.
- أيوه كده ابتسمي وفرفشي، ماحدِّش واخد منها حاجة، والمكتوب هيكون، وأنا أتوقع الفيديو هو اللي هيطلعك براءة، دا غير تعاطف الناس، إنتي خلاص بقيتي قضية الموسم، إنتي دلوقتي أشهر من هيفاء وإليسا، ومن غير ما تبيِّني رجليكي وصدرك.
تظل الابتسامة الباهتة على وجه شيماء التي وجدت في حوار زينب فرصةً للهروب من حالتها السيئة حفاظًا على سلامتها العقلية.
- إنتي ظريفة قوي يا زينب، إنتي هنا ليه؟
- أنا رقاصة، بس في ملهى لَيْلي محترم، مش كباريه يعني، بس ممسوكة لأعمال منافية للآداب.
- ليه كنتي بتعملي إيه؟
- كنت عند واحد من المغضوب عليهم.
تضحك شيماء تلك المرة.
- بس مسكوني وأنا نازلة من عنده وبيحاولوا يلبسوني أي حاجة، بس كالعادة مش هيعرفوا وهيجي المحامي يطلعني وخلصت القصة.
- طيب كويس.
- طبعًا كويس، هُمَّا لو كانوا جم بدري ربع ساعة، كانوا جابوني وماعرفتش أطلع بقية حياتي.
تضحك شيماء مرة أخرى على التعليقات التي لم تطرق أذنها من قبل بينما تستطرد زينب:

- بس الحمد لله، ربنا ستر.
تنظر شيماء إلى زينب في خجلٍ:
- ممكن أسألك سؤال؟
- 8000 جنيه الليلة.
- لا خالص مش هو دا، أنا كنت عايزة أسألك، لو كنتي مكاني، كنتي عملت إيه؟
تنظر لها زينب بِحيرةٍ:
- عملت إيه في إيه؟
- واحد بقاله شهر كامل ماشي وراكي وبيبعت أصحابه وبهدلك كتير وانتي مالكيش أخ رجل أو جار أو حد يوقف في وشه، وأبوكي راجل كبير ما يستحملش خناق ولا كسرة نِفس.. لو انتي مكاني كنتي عملتي إيه؟
تظل نظرة الحيرة على وجه زينب:
- بصي يا شيمو، إنتي صح واللي عملتيه دا عين العقل، لو كان عاش كان بهدِلِك بقية حياتك، ولو سلمتيله كان هيبقى حلمك تيجي تشتغلي عندي على البار، ماتلوميش نفسك إنتي تمام.
تنظر لها شيماء بنظرة بها نوعٌ من الرضا عن الجواب.
- معلش يا شيماء اصبري، دي مشكلتنا كلنا، مشكلة نسوان البلد دلوقتي هي قلة الرجالة وكترة الحلاليف، الحلاليف اللي ماشية في الشارع مستقوية بنفسها، دا غير الحلوف اللي ممكن يطلعلك في الشغل، والحلوف اللي ممكن تتجوزيه كمان، دا حتى في السراير مابقوش رجالة، بصي كده أدّ إيه إعلانات أدوية جنسية، حتعرفي إن مابقاش فيه رجالة.
تنظر لها شيماء بشيء من حزنٍ، بينما تبتسم زينب ابتسامةً فاترةً وهي تروي:
- وانتي فاكرة إن أنا كنت ممكن أشتغل الشغلانة دي لو كان في رجالة، لو كان في رجل واحد في حياتي، كان وقف في ظهري وكنت بقيت ضِلعه، بس للأسف، كل اللي حواليه حلاليف.
تختلط ألوان الحزن في عين شيماء، بينما تنظر لها زينب:
- المهم امسكي نفسك، وتفاءلي، وربنا يكرمك.
- إن شاء الله، شكرًا يا زينب، إنت شِلتي من جوايا قالب طوب كان قاتلني.
- عيب الناس لبعض، ولما ربنا يكرمك بالبراءة هتعزميني على كباب، والا لما تطلعي بره هتعملي مش من هنا.
تبتسم شيماء:
- هعزمك وبعديها مش هعرفك تاني.
يضحك كلاهما لينشق الظلام في نفوسهم بخط ضوء أبيض من أملٍ..
وبنفوس تحلم بالنهايات السعيدة، لحياة تنتظر فاتحة يديها للمستقبل بشوقٍ..
وقدر ينتظر مترقبًا في صمتٍ..
***
- وانا كنت أقدر أعمل إيه، كنت قتلته طيب ولّا كنت عملت إيه؟
يقولها غريب السيد والد شيماء وهو يجلس وحيدًا على قهوة بعد خروجه من العمل، يعمل في وزارة الكهرباء في العباسية، خرج وسار حتى موقف العباسية ولكن أفكاره منعته أن يذهب إلى

المنزل كعادته ففضَّل الجلوس حتى يجمعها ويحاول أن يخرج منها ردًّا على تساؤلاته، وكان هذا هو الرد.
غريب رجل بسيط، لم يضعه القدر في مثل تلك المواقف أو حتى أشباهها، كان يسير مع التيار ويذهب معه أينما ذهبَ، وكان التيار رحيمًا به حتى هذه اللحظة في حياته.
- تطلب حاجة يا والدي؟
يقاطع أفكاره القهوجي، فينظر في وجهه لدقيقة وقبل أن يكرر القهوجي السؤال يقاطعه غريب:
- شاي يا ابني.
ينسحب القهوجي وهو يبلغ الطلب بصوتٍ جَهوريٍّ إلى الصنايعي على البوفيه، ويترك غريب ينظر في الفراغ، كان يتعذب داخله، ليس على الوضع الذي به ابنته فقط؛ فهناك شيء كان يعذبه كل يوم ولا يجعله ينام؛ أن ابنته أخذت مثل هذا القرار لشعورها أنه لا يوجد لها ظهر، أن لا أحد يستطيع حمايتها وأنه لا يوجد حل سوى ما فعلته، لقد طلبت منه مرة مساعدتها وبعد ذلك شعرت أن لا فائدة له وقررت مواجهة الشيطان وحدها.. إن كل الأحداث المرعبة التي ذُكِرَت في القضية هو لم يكن يعرف عنها شيئًا، كانت تواجه كل هذا الشر وتعود للمنزل بلا حديثٍ حتى تداري ما يحدث لها له منعًا من أن يشعر بالأذى، إلا أنها في الحقيقة كانت تحميه من خيبة رجائه وقلة حيلته وضعفه، ما الذي كان يستطيع فعله أمام سعد المليح وعصابته، أقصى ما كان سيفعله أن يذهب إليه ويواجهه حتى يقوم سعد بالاعتداء عليه وينتهي الأمر بأن تؤمن شيماء أن أباها عاجزٌ، وأفضل ما يستطيع القيام به هو أن يجلب لها وله العار.
إنها الحياة التي تضع للأخيار اختبارات العجز، وتعطي للأشرار فرصة ثانية، تغرق الدموع عينيه فيقف مرة واحدة ويسير بسرعة خارج القهوة متجهًا إلى الموقف، ووجهه لا يستطيع حبسَ طعم الأسى الذي يصاحبه تلك الفترة، فتنهمر الدموع وهو يسير والناس تنظر له كأنه مجنونٌ، وصوت القهوجي ينادي عليه في الخلفية، وفي الوقت الذي ذهب إلى قلب الزحام لإخفاء أحزانه، أصبح واضحًا كبهلوانَ في منتصف الطريق تشاهده الناس باهتمام وشغف، ثم اختفى.

***

- معسِّل يا هنداوي.
صوت محمود يرجّ المقهى الجالس فيه مع كمال، قبل أن يلتفت للأخير:
- هتعمل إيه يا حاج؟
يردّ كمال وهو يشعر بضيقٍ يظهر في ضيق حاجبيه وتجاعيد جبهته.
- في إيه؟
- قضية شيماء دي خسرانة بالتلاتة.
- بلاش فقر وحياة أبوك، إنت بتقفلها ليه؟
- عزت الدويني، أنا مش شايف أكتر من كده قفلة يا كمال، بلاش نضحك على بعض.
- بمعنى.
- إحنا نخش القضية دي للشهرة، بس هنخسرها هنخسرها، مالهاش حل.
يضع قهوجي شيشة أمام كُلٍّ منهما، ويرص الفحم بعناية، قبل أن يلتفت ويرحل، يضع كمال المبسم في فمه دون أن يرد ويبدأ في التنفس عن طريق المعسل، بينما يدخل الهواء صدره، وصوت كركرة ماء الشيشة يعلو، والدخان يملأ فمه وأنفه ليخرج ليصنع ضبابًا أمام عينيه، تتجمع كل تلك

العوامل لتفصله عن العالم، وتساعده في عُزلةٍ قصيرة للتفكير بهدوءٍ، تاركًا محمود في انتظار الرد.
يتركه محمود في ذلك المعبد الذي صنعه بالمعسِّل السلوم لمدة دقيقتين، قبل أن يخرج كمال من رحلته في التأمل.
- الجلسة لسه قصادها إسبوعين.
- ما أنا عارف يا كمال، هتعمل إيه؟
- إنت رايح بكرة المحكمة؟
- آه طبعًا، عندي جلسة ونطق حكم.
- عايزك تعرف عزت الدويني لو حبيت أقابله، إيه الأماكن اللي ممكن يظهر فيها، المطعم، النادي، القهوة.
تجحظ عين محمود.
- نعم يا أخويا إنت عايز تقابله بنفسك، حتروح تقوله إيه؟ (والنبي البت مظلومة يا جناب القاضي)، عشان يعند ويديها مؤبد.
ينظر كمال إلى محمود بنظرة هادئة:
- من غير حوارات، اعرف المعلومة من سُكَات، مادام بايظة بايظة، إيه اللي هيفرق معاك؟
محمود ينظر له بعدم اقتناع تام:
- اللي تشوفه، أن أعرف الواد بتاع بوفيه مكاتب القضاة أكيد عنده فكرة أو يعرف حد عنده فكرة.
- بالظبط كده، وأنا هعمل محاولة، واللي فيه خير يقدمه ربنا.
ويصمت كلاهما وصوت القلق يعلو في النفوس، وكمال يفكر في عمقٍ..
المخاطرة.. لا يملك سوى المخاطرة..
سيرمي النرد ويرى ماذا سيجلب له..
***
اليوم التالي
يسير كمال في مدخل عمارة أنيقة بالمعادي، يصعد إلى الدور الأول ليجد مدخلاً أنيقًا فوقه يافطة مضيئة تحمل اسم جمعية امراة شرقية وبجانبها شعار الجمعية، رمزٌ مُنقسَمٌ لنصفين، نصف لشيء يشبه الخمار ملتحم مع نصف آخر لشعر امرأة في شكلٍ بيضاويٍّ كاملٍ، يدخل من الباب ليجد فردَ أمنٍ يقف ليلتفت إلى مكتب الاستقبال تجلس عليه موظفة استقبال في قمة الجمال فيبتسم قائلاً:
- مساء الخير، كنت عايز أقابل أستاذة هبة إسماعيل.
- أستاذ كمال أبو الفضل؟
- بالظبط..
- اتفضل يا افندم، هي في انتظارك.
تقوده ليسير بين المكاتب الأنيقة إلى أن تفتح له باب أحد المكاتب قائلة:
- اتفضل.
يدخل فيجد مكتبًا كبيرًا به منضدة اجتماعات متوسطة الحجم، تجلس إليها هبة وامرأتان أخريين؛ الأولى تبدو في أوائل الخمسينيات يظهر عليها أنها سيدة مجتمع، تستحق لقب هانم عن جدارة لثيابها وقَصّة شعرها، وطريقة نظرتها لكمال المرحبة بكبرياء شديدٍ، والثانية امرأة في منتصف

الثلاثينيات ويظهر عليها الرقي والبراءة إلا أن ملابسها تنتمي لمدرسة فساتين فاتن حمامة وشادية بعض الشي.
- أستاذ كمال أحب أعرَّفَك برئيسة الجمعية؛ الأستاذة ماجدة محرز.
يرن الاسم في أذُن كمال، لا يعرف أين ولكن يعرف أنها مشهورة فيمد يده بجرأة:
- أشهر من نار على علم يا افندم.
ترد وهي تنظر له دون أي انفعالٍ أو تقديرٍ لكلماته.
- شكرًا.
تشير هبة إلى السيدة الثلاثينية بعد ذلك.
- الدكتورة منة رياض، المستشارة الإعلامية للجمعية.
يبتسم كمال لها:
- تشرَّفنا يا افندم.
- شكرًا، اتفضل يا أستاذ كمال.
يجلس الأربعة حول المائدة المستديرة، تنظر له منة بهدوءٍ وتبدأ الكلام:
- أعتقد يا أستاذ كمال هبة إديتك خلفية عن توجُّهنا وسبب اهتمامنا بالقضية، إحنا عايزين في الأول نعرف، إيه موقف القضية الحالي بعد العرض على النيابة بالظبط.
ينظر كمال إليهم بتركيز ثم يبدأ في الشرح:
- القضية ببساطة، إن شيماء غريب كانت بتتعرض لمضايقات من المجني عليه سعد المليح بشكل مستمر، وكان بيطاردها وعايز يراودها عن نفسها، استخدم كل الأساليب الملتوية؛ طاردها بالعربية، وبعت حد سرق شنطتها وبعد كده ردها لها، هي خافت على نفسها من إن الموضوع يتطور ويوصل للخطف، فقررت حمل سلاح لحماية نفسها من حدوث ذلك، وهي سكينة مطبخ حجمها متوسط ومشرشرة – ده في وصف السلاح يعني-، وفي يوم للصدفة البحتة صاحب الكشك اللي كان بيوقف عنده سعد يستنى شيماء والشاهد الأساسي على اللي كان بيحصلها قرَّر يصوَّر اللي بيحصل، يكون للصدفة اليوم اللي قرر سعد يحط إيده على شيماء عشان يتأكد إنها سلِّمت، ويكون برضو اليوم اللي تقرر شيماء إنهاء كابوسها الدائم وتضربه طعنتين، واحدة تتسبب بقطع في منطقةٍ حسَّاسةٍ للمجني عليه، ودي ماكانتش هتموته في الغالب، لكن الطعنة التانية كانت اخترقت العين إلى المخ مما أصابه بنزيف داخلي كان سببَ الوفاة، دي القصة على لسان شيماء وبعض الشهود.
تقاطعه هبة:
- طيب هايل، الفيديو وصاحب الكشك هيبقوا عاملين حاسمين في القضية.
يغمض كمال عينه اليمنى ويميل برأسه 30 درجات ناحية اليمين ويتكلم بهدوءٍ:
- لا، أغلب الظن الفيديو مش هيتَّاخِد بيه في المحكمة، أو هيبقى مش دليل تام يعني.
تنظر له منة:
- صاحب الكشك كفاية.
ينظر لها نفس النظرة:
- أنا رحت المنطقة قريب، والكشك مش موجود أساسًا.
- نعم! أومال راح فين؟

ينظر إلى ثلاثتهم باقتضاب ويستكمل:
- في حد تاني مصلحته إن شيماء تقضي بقية حياتها في السجن، لا الكشك ولا صاحبه موجودين، وفي شهود بيقولوا إن شيماء وسعد كانوا على علاقة ببعض وعشان مارضاش يصلح غلتطه قررت تقتله، وفي ناس من أصدقائه قدموا أدلة كلها مش هيتاخد بيها وضعيفة، اللي نفهمه إن إحنا مش في طريق سالك.
تنظر له منة بشيءٍ من الحيرة:
- تعتقد إن يكون في علاقة فعلية ما بينهم؟
يشير كمال بذراعه كالسيف.
- نهائي، ولا أي حاجة نهائي، قصة البنت سليمة 100% لكن أبوه تاجر كبير ودا كان ابنه الوحيد وهو مصدوم، فبتحرَّكه غريزة الانتقام، الرجل مش سفاح يعني، بس عايز يضمن إن البنت تقضي حياتها في السجن.
تتدخل في تلك اللحظة ماجدة هانم:
- كمال بيه، إحنا نقدر نقدِّم إيه للقضية؟
ينظر لها كمال بتركيزٍ:
- النواحي القانونية كلها عليَّ أنا، القضية مجرد إجراءات ودي كلها سهلة.
تنظر له بإمعان:
- والصعب؟
يأخذ نفسًا عميقًا.
- الترويج للموضوع، تعاطُف الناس هيبقى ضغط على القضية ككل وهيبقى فيه نوع من التوجيه للحكم، حتى لو بسيط.
تقاطعه منة:
- واحنا فعلاً في الاتجاه دا وماشيين فيه.
ينظر لها كمال:
- مش كفاية، في حاجة إهم.
- اللي هي؟
- عزت الدويني.
ترمقه هبة بنظرةٍ وهي ترد عليه:
- ودا إحنا هنعمِلُّه إيه؟
يرد كمال بشيء من حذرٍ:
- من الآخر لو ليكوا تأثير على الإعلام، أنا ممكن أبعتلكوا ملف قضايا الرجل دا، مابياخدش غير بالدلائل بدون النظر للبُعد الإنساني أو استخدام روح القانون، عايز الحوار يكون ليه قضية بالحساسية دي وبكم البعد الإنساني اللي فيها من ظلم للمرأة إلى آخره، تتحول لأكثر قضاة مصر قسوة وتعنُّت في تنفيذ القوانين، محتاج نلعب على الحتة دي جدًّا لأنها مهمة جدًّا.
تنظر له منة:
- وهو في الحقيقة، القضية اتوجهت ليه؟
يرد كمال بحسمٍ:

- لا خالص، دا هي جت في رول القضايا بتوعه على ما أعتقد، لا، مش موجهة.
تقطع ماجدة هانم الحوار:
- تمام، من ناحيتنا هنركز على النقط اللي حضرتك ذكرتها.
ينظر لها كمال وهو لا يحتمل نظراتها المتعالية:
- وأنا من ناحيتي كل النقط متغطية.
يستكملون الحوار الذي لم يزِد في مجمله عن نصف ساعة، ليرحل كمال عن الجمعية وليس في ذهنه أي شيء من الحوار، لا يشغل باله سوى شيءٍ واحدٍ:
عزت..
***
- تسلم إيديك يا رشدي، أبو الصحاب بجد.
- عيب سيد، دا عيش وملح وسعد دا كان ابني.
يعود سيد للاسترخاء على مقعد مكتبه في المعرض، وهو ينظر للسقف بينما يتحدث رشدي:
- الكشك شِلناه باللي فيه، بس حطيناه للرجل ببضاعته في حتة تانية، إحنا مانقطعش عيش ولا نغضب ربنا.
ييشيح سيد بيده علامة على النفي:
- ولا عمرنا عملناها، أُمَّال نِعَم ربنا وكرمه عليَّ دا كله منين، عشان بخاف منه وبراعي الناس، أنا عمري ما ظلمت صنايعي ولا بياع عندي، وربنا شاهد عليَّ.
- صادق يا عم سيد من غير حلفان.
يشعل سيد سيجارة وينظر لرشدي:
- وبعد كده هنعمل إيه؟
- مش هنعمل حاجة، هنستنى الجلسة الأولى ونشوف الدنيا عاملة إزاي، أنا اللي عرفته إن القاضي اللي ماسك القضية رخم، ومابيفوتش الهوا، متسهِّلة، متسهِّلة يا أبو سعد.
تنزل دمعة من عين سيد وهو يرفع رأسه للسقف:
- بإذنك يا رب، إنت عارف سعد كان طيب، دا عمره ما أذى حد، ولا جِه جنب حد، ولا عمل حاجة مع حد من غير رضاه.
يقولها وهو يتذكر ابنه الوحيد، يتذكر ضحكته ومزاحه معه، وأيضًا وهو ينهره عندما يجده سكرانٌ أو عندما صفعه على وجهه عندما وجد زوجة صنايعي من صبيانه لديه في المنزل، وأنه اضطر لرفع أجرة هذا الصنايعي بعد ذلك إرضاءً لضميره، ويتمنى أن تعود الأيام وتنقطع يده قبل أن يرفعها على وجه سعد.. تختلف معايير الحرام والحلال لدى البشر على اختلاف طبقاتهم، وفي وجهة نظر سيد والمرحوم ابنه أنَّ أيَّ شيءٍ يمكن تعويضه بالمال؛ لأنهما يعرفان أن المال هو كل شيء، فحرمانية صفع موظف أو بائع لديه بكامل كفه على وجهه أمام زبون، تنتهي بحفنة أوراق مالية يطبقها في يد العامل، والناس تحتاج المال وتقبله في صمتٍ، غير أنه يصرف الكثير لوجه الله، والناس كلها تُقِرُّ بذلك، فإذا أخرج عُملةً نقدية ليعطيها لمحتاج يجب أن يفردها ليرى الجميع رقمها قبل أن يُطبِّقها في خشوعٍ في يد السائل، أو العجول الذي يذبحها أمام المحل وهو يقف بتباهٍ، كل هذا يجعله يرى نفسه إنسانًا ربَّانيًّا سيقبله الله في الآخرة، قد يحدث في خياله أن تمكن في

الاحتفاظ بأمواله معه طوال الطريق عبر القبر ثم في الآخرة، هو من النوع الثاني من البشر: «النادمون».

الفصل الخامس
لقاء مع الكابوس

التفاوض هو أن تُغيِّر رأيَ شخصٍ ما في أمر ما أو تحاول إقناعه بوجهة نظرك.. أليس هذا ما يفعله داخلنا الشيطان طوال الوقت؟
بمعلومة مُسرَّبة يعرف كمال مكان المقهى الذي يقصده عزت للقاء أصدقائه، وأصبح المرور بالمقهى جزءًا من برنامجه اليومي لعله يجده، في الحقيقة لم يكن يعرف ماذا سوف يقول له أو حتى هو لا يعرف ما يريد منه، كان يحتاج لمعرفة عزت أكثر، وربما يستدل في حواره على الثغرة التي يمكن منها الدخول إلى رأس عزت وجعله يميل إلى صفِّ مُوكِّلته، كان من داخل كمال يعرف أنه إذا أتمَّ كُلَّ الإجراءات وقدَّمَ كل الدلائل بشكلها الحالي إلى عزت، سيكون الحكم قاسيًا؛ لأنه من معرفته بالقضايا التي عرضت على عزت أنه يحذف كل ما هو إنساني وتبقى المادة حاكمة، بالطبع كان يعلم أيضًا بوجود مكرم على الأقل معه، هذا يجعل المحاولة خطرة، هو يأخذ خطوة قد تدمر القضية كلها، لكن في حساباته إن تركَ الوضع على ما هو عليه فالنتيجة لن تكون مختلفة كثيرًا، إذًا فليفعل ما بوسعه وليترك الإجابة معلقةً للقدر.
يتبقى على الجلسة الأولى أسبوع.
يذهب كمال من المكتب إلى المقهى، غيَّر ملابسه هناك حتى لا يعطي طابعًا رسميًّا للزيارة؛ تي شيرت بولو وبنطالاً قماشيًّا يؤديان الغرض من الظهور بشيءٍ من الأناقة الليلية غير المُبتذَلَة، يسير حتى المقهى، ولكن تلك المرة يقرر الجلوس والانتظار.
بالرغم من شهرة مكرم ومعرفة كمال به، لكن كمال لا يتذكر ملامحه جيدًا، مما يصعِّب المهمة قليلاً، لكن عزت تعرفه من وسط ألف شخص، فهو يسير كالسيف بحيث يمكنك رؤية الهالة التي حوله من عشرة كيلومترات، بنظرات عينيه الثقيلة على القلب، وهدوئه المميت، بينما يجلس كمال على المقهى يتذكر القضايا التي حضرها لعزت، وكيف كان المحامون يصنعون من الآدلة اللامعة بدلات رقصٍ يؤدون بها فقرات ساحرة أمام منصته، وبعد وصلة رقص طويلة بكل ما تحمله أدلة لامعة ومرافعات مثيرة وكلمات مغرية، كان يضرب بمطرقته ليهدّ هذا الكباريه على رأس أصحابه، وقريبًا سيقف هو أيضًا تحت نفس ذات المطرقة، في انتظار القرار
وفي الانتظار يشرد عقل كمال في الأفكار إلى أن يقطع وجه عزت أفكاره وهو يدخل القهوة متجهًا إلى الداخل، ولحسن الصدف يجلس وحيدًا، على ما يبدو أن مكرم أو أيٌّ مَن كان سوف يقابله لم يأتِ بعد، ينتظر كمال خمس دقائق حتى يجلس عزت وتأتي له القهوة والشيشة، ويقرر الدخول له، وعند المواجهة يظهر الفارق بين البشر، فالغبي يتقدم بحماسة، فقط يحمل السؤال الذي في عقله دون توقُّع للإجابات، والذكي يتقدم بحذرٍ بألفِ سُؤالٍ وفي عقله ألفُ جوابٍ، وكلاهما يفشل في المواجهة، ينجح فقط الحكيم، الذي يعرف فَنَّ الوقت، وقدسية الصمت.
يدخل من باب المقهى الصغير، ويتقدَّم حتى يقف أمام طاولة عزت يرسم ابتسامة على قدر ما يملك من قدرة على التمثيل وينظر إلى عزت الذي ينظر إلى هاتفه في هدوءٍ.
- مساء الخير يا سيادة المستشار.
يرفع عزت عينيه تجاه كمال للحظة ثم يعيدها ناحية الهاتف مرة أخرى وهو يتحدث بهدوءٍ:
- مساء النور.

كمال فيزيائيًّا واقفٌ بثباتٍ، بينما هو نفسه يشعر من الداخل أنه يتقدم خطوة ويعود للخلف خطوتين.
- ممكن آخد من وقت حضرتك خمس دقايق.
يطفئ شاشة الهاتف ويضعه في جيبه ثم يشير بالسبابة إلى الكرسي المقابل له على الطاولة:
- اقعد يا كمال.
إشارة إصبع عزت هي ما حركت كمال كالعروسة إلى المقعد، بينما كمال كان قد تجمَّد من هول مفاجأة معرفة عزت لاسمه، كلمة واحدة بعثرت كل أوراق كمال وزادت فوقَ حيرتِه حيرةً، ولكنه سوف يستكمل التمثيلية إلى النهاية، إذا انهار ستنهار قضيته كاملة، فيرسم ابتسامة أخرى.
- ماكنتش أتوقع إن حضرتك تعرفني.
- شُفتك كتير في المحكمة وفاكر شكلك من أيام ما كنت في مكتب محمد حبيب، وكنت بتحضر معاه قضاياه.
ثم يثبت عينه في عين كمال:
- أنا عمري ما أنسى وِش شُفته، أو اسم عرفته.
كمال يشعر أن عزت بنظراته يضعه في الركن الضيق في الغرفة، مما يثير الرهبة داخله.
- دي حاجة تشرفني يا افندم.
ينظر له عزت مرة أخرى بسكون الموت وبروده:
- العفو يا كمال، المهم، إنت جاي من فترة ومستنيني إن ماكنتش جيت قبل كده، وعايز تقول حاجة بخصوص قضية فتاة العاشر، وأنا حابب أعرف إيه هي.
في تلك اللحظة تأكَّد كمال أن قرار زيارته كان خاطئًا 100%، كمال توقع أنه هو من سيدير الحوار، لا أن يصبح في لحظة في موقع المتهم الذي يتم التحقيق معه من أقسى وأعنف المحققين، كان يتمنى أن يقف أمام عزت يومًا ما، أما الآن، كل ما يتمناه هو القدرة الخارقة للتبخر من أمامه، أو آلة الزمن ليعيد الوقت لما قبل الخطوة الحمقاء، ولكنه ليس لديه ما يخسره الآن.
- أنا بس جاي آخد رأي حضرتك في القضية، بعيدًا عن موقفنا الرسمي منها.
ينظر له عزت وترتسم شبه ابتسامة على وجهه:
- تعرف يا كمال ليه أنا بقعد على القهوة بس عمري ما لعبت لعبة من اللي بتتلعب عليها؟
ينعقد حاجبا كمال ويرد بمحاولة للحفاظ على الهدوء:
- ليه يا افندم؟
- أغلب اللِّعَب دي بتعتمد على الزهر أو ورق الكوتشينة، فالأساس عامل الحظ، ممكن يبقى فهي شيء من مهارة بس بتدور في إطار أساسي من الحظ، فتلاقي الفاشل اللي بيلعب لما يكسب يبقى مجهوده وحده، لو خسر يلوم الحظ وحده، اللعبة أساسها المتعة مش المنافسة، بس اللي بيلعبوها هُمَّا اللي فشلة.
ثم تزداد الابتسامة على وجهه:
- والنهارده إنت جاي ترمي زهرك في طاولتي، لو إنت فاكر إنك ممكن تكسب أو تخسر تبقى حمار، لو إنت جاي زي ما بتقول للمتعة، هتبقى فاشل برضو؛ لأنك مافكرتش إن كان اللي قدامك برضو هيلعب للمتعة، ولَّا بالنسبة له مكسب وخسارة.
في تلك النقطة، ينكمش عقل كمال بينما عين عزت لم تطرف عن عينيه، فتحبسهما في مكانهما، ولا يستطيع الخروج عن الركن الصغير الذي وضعَهُ فيه عزت، يتجمد لسانه لثوانٍ، قبل أن يردّ

بهدوءٍ:
- أنا عايز أعرف بعد ما حضرتك قريت القضية، إيه فُرَصي فيها، دا اللي أنا كنت عايز أحاول أستشفه من حضرتك.
تختفي الابتسامة من على وجه عزت:
- مفيش قاضي بيحكُم على شخص لسه ماوقفش قُدَّام منصته.
كمال يدرك القضبان التي يضعها عزت حوله، فيتجرأ حتى لا يكون سجينه:
- أنا حضرت لسيادتك كذا قضية، حضرتك بتاخد بالإجراءات والمستندات بدون النظر للوضع النفسي للمتهم.
ينظر عزت بتركيز بدون ظهور أي علامة للضيق على ملامحه، ويرد قائلاً:
- دا القانون اللي بيقول كده، وأنا بطبَّق القانون بدون أي تحايل عليه.
يوَدّ كمال قول ما بداخله ولكن خوفًا من انقلاب هدوء عزت إلى حدة يوقفه، ويقرر الانسحاب بهدوءٍ.
- عمومًا أنا بشكر حضرتك على وقتك، وبعتذر لحضرتك لو كنت تعديت حدودي.
- لا خالص، ولو حبيت تشرفني تاني تقول حاجة، هبقى موجود هنا بعد بكرة.
ويُخرج الهاتف من جيبه وينظر إليه وهو يكمل:
- مع السلامة يا كمال.
يقف كمال بصعوبة كأنه يكسر الثلج من المقعد، ويخرج دون أي سلامٍ أو رَدٍّ، يحاسب القهوجي ويترك الباقي كبقشيش ليس كرمًا ولكن لصعوبة لعبة حساب المشروبات بالنسبة لعقله المعطل.
لم يكن اللقاء طويلاً، ولكنه كان كافيًا ليظلم قلب كمال ويضع ستارًا أسودَ للأمل.
هل كان يوجد تصرُّفٌ أسوأ من الذهاب للدويني بنفسه.
يعود إلى منزله، يدخل إلى الفراش ليريح نفسه من كلِّ هذا الضغط والتوتر الذي كان فيه.
يذهب للفراش ليتقلب عليه كالدجاج في ماكينة الشوي..
غبي ومتسرع، هذا وِردُ الليلة ثم ينام.
***

اليوم التالي
يستيقظ كمال على صورة داخلية لفشله في الحوار مع عزت، وبداخله غُصَّة تنمو كشجرة اللبلاب، قد تخرج من فمه وأنفه في الساعات القادمة إن لم يكف عقله على رَيِّ تلك الغصة بصورة عزت في المقهى، يجلس على الفراش وهو يغمض عينيه ويستجمع أفكاره، ما الخطوة القادمة المحتمَلَة التي قد تُقلِّل من عوامل الفشل أو تُحدِث المعجزة، لا شيءَ، يقرر الذهاب إلى المحكمة ومتابعة عمله، لكنه لا يستطيع الخروج من الحالة التي جعله عزت يرتديه، الحرب خدعة، وهو حاول أن يأخذ المبادرة والمفاجأة ويهاجم الشيطان في عقر داره، وقد نسي أن دار الشيطان هو الجحيم، وأن الشيطان من نار، وهو الوحيد الذي سوف يحترق ويخسر في تلك الليلة، كيف كان عزت بكل هذا الاستعداد، كيف استطاع وضعَ كمال في ركن غرفته الدائرية، وكيف صار هزيلاً ضعيفًا أمامه، ولكنه في قرارة نفسه لن يستسلم، لن يجعل هذا الحوار الأخير بالتأكيد، هو خسر الحرب كاملة عندما قرَّر الذهاب في الأساس، ولكن هذا لا يعني أنه لن يدخل المعارك المتبقية، سيذهب له الغد

مرة أخرى، يستكمل يومه الطبيعي وهو يحاول نفسيًّا الاستعداد للمعركة القادمة، أو بالأصح لخسارة جديدة محتمَلة.

***

- أنا آسف يا بنتي.

قالها «غريب» وهو يجلس مع ابنته شيماء على انفراد بغرفة المأمور.

فتنظر شيماء في عيني والدها اللتين تملأهما الدموع.

- يا بابا إنت مالك ومال القصة دي؟

ينظر إليها وشفتاه منكمشتان تملأهما شقوقُ السن والأسى.

- أنا مالي، إذا كنت ماخلفتش في عمري كله غيرك وماعرفتش أحميكي، بنت وحيدة وماعرِفتش أمنع عنها الشر.

يبدو على وجهها التأثر وهي ترد قائلة:

- يا بابا وانت كان بإيدك إيه، دا حال البلد كلها، دا كويس إنه ما اغتصبنيش مثلاً.

ينظر لها وتلك المرة ينظر إلى الأرض والدموع تسقط من عينيه ببطء:

- عارفة يا شيماء، أنا طول عمري جنب الحيط، عمري ما دخلت في خناقة ولا جريت على شر، كنت فاكر إن طول ما أنا بعيد عن الشر، الشر هيكون بعيد عني، كنت فاكر إن عمري ما هقابله، لأن عمري ما رُحت سِكِّته، لكن مفيش حد في أمان، ويوم ما يجي، يقطع طريقي ويدخل في طريقك، وأنا ماقدرتش ولا قادر أعمل أي حاجة.

يقولها بينما يحاول الإمساك بأعصابه حتى لا تنهار ابنته، ولكن لا شيء يساعده إلا هي، التي تحتضنه.

- يا بابا خلاص، إن شاء الله خير وأطلع من هنا وأكمل حياتي.

يترك ذراعيها وينظر لها وكله أمل:

- إن شاء الله، أنا أملي في ربنا كبير.

يسكت للحظة ويستطرد:

- والمحامي اللي جابه عمك محمد هو صغير بس شكله كويس.

- آه، أنا حسيت كده برضو، واثق من نفسه ومش ضعيف أبدًا.

- إن شاء الله خير يا بنتي.

يقف كلاهما وتودعه وكلاهما عينيهم ممتلئ بالدموع، ويذهب هو خارج القسم بينما هي تعود هي إلى غرفة الحبس.

وهي تدخل تنظر إلى آخرين وقلبها منقبض، حين يرد لها بعض محترفات السجون نظراتها بنظرات اشمئزاز من رفاهيتها ونعومة يديها.

من فمها تردد الآيات القرآنية راجية الله أن يفرج كربها، ومن قلبها مع كل نبضة أمنية بعدم التعرض للإهانة أو الضرب حتى لا تنهار أمام الجميع، وسط هؤلاء الذين اختاروا هذا المكان كاحتمالٍ ليكون المنزل الثاني، إن كان لديهم منزل أول في الأساس.. عقلها يصرخ، هذا ليس عالمي، تتذكر كم كانت هي سعيدة وتعيش حياتها.

في أولى سنوات شبابها، كل ما كان يقلقها هو مشكلة في العمل تبقى عالقة في عقلها لساعاتٍ، أو الوقت الذي قضته في مشاهدة فيلم سيءٍ في السينما مع أصدقائها، ولكنها أصبحت الآن كملايين

البشر الذين يسيرون بمشاكل عالمهم المزمنة، هي الآن تعيش أزمة مزمنة، إن خرجت منها ستحمل نفسها تلك التجربة المريرة معها إلى نهاية العمر، وإن لم تخرج، هي لا تعرف ولا تريد حتى التفكير في هذا الاحتمال، لكنها في كل تلك الحالات تلك المخاوف والألم الداخلي استطاعوا أن يتحدوا لينتجوا هذة الضجة الداخلية التي تجعل الدم يجري في العروق مجبِرًا القلب على زيادة دقاته لا العكس، أصبحت من شابة يافعة ترى مستقبلاً باسمًا، إلى مواطنة مصرية أصيلة لا ترى إلا سواد عالمها، تملك الآن الانفجار الصامت، الذي يدمِّر باطننا ولا يظهر منه على الوجوه إلا الوجوم، مات سعد وهو يشعل فتيل قنبلة شيماء الداخلية، ذهب إلى الجحيم السماوي تاركًا اياها في الجحيم الأرضي، من أجل نزوة.

***

يسير كمال إلى المقهى مرة أخرى، تلك المرة بعقل صافٍ لا يحمل أيَّ أفكارٍ، يعلم من داخله أنه لن يخسر أكثر مما خسر، ولكن ضربة حظ قد تعيد له بصيصًا من الأمل لفرصة أخرى، تلك المرة مبكِّرًا عن المرة السابقة، يسير وسط مبانٍ مصر الجديدة بعبقها الفريد، وشوارعها التي ظلمها الازدحام، حتى يظهر أمامه المقهى، يدخل متجهًا إلى نفس المكان الذي كان يجلس فيه عزت، تلك المرة قرَّر حجز المكان مقدمًا، حتى عندما يأتي عزت يجده في انتظاره، وفي تلك الفكرة قد ترسل رسالة، لكنه يجد عزت في انتظاره.

ومع ظهوره كاملاً لعزت الذي يمسك فنجان القهوة يشير له بحركة خفيفة من رأسه للجلوس، فيجلس كمال في هدوء بدون أن تتغير ملامحه، تلك هي اللعبة اذن، كمال ليس غبيا ليدرك بعد اللقاء الاول ان عزت سيبهره في كل شيء، ويسبقه بخطواتٍ عديدة عن تفكيره، هو فقط عليه ان لا يعطي رد فعل خاطئ، فليترك زمام الحوار مع عزت.

- مساء الخير سيادة المستشار.

- مساء النور كمال بيه.

- أخبار صحتك إيه؟

- الحمد لله، وانت؟

- أنا كويس الحمد لله.

يصمت لثوانٍ قبل أن يقطعه عزت:

- الصراحة بتجبرني إني أقول، إن احتمال ظهورك تاني كان بالنسبة لي ضعيف.

يبتسم كمال:

- يعني حضرتك اتفاجئت.

ينظر له عزت وهو يميل رأسه إلى أسفل قليلاً:

- كلمة احتمال لا توحي بالجزم نهائيًّا.

بينما يترجم كمال الجملة في عقله يستطرد عزت مقاطعًا أفكاره:

- لا، مفيش مفاجآت للأسف.

- أنا كنت بهزر سيادتك، دعابة.

يبتسم عزت ابتسامة مرسومة على وجه ميت وهو يعود بظهره إلى الخلف.

- وظريفة.

يرفع فنجان القهوة ويأخذ منه رشفة بينما تطير الابتسامة وينظر لكمال:

- عايز تتكلم في القضية تاني يا كمال بيه.
ينظر له كمال ويرتفع حاجبه وهو يستجمع الكلمات المناسبة.
- خليني أقول إن لو حضرتك إدّيني فرصة أدردش معاك، فأنا أكون شاكر الفرصة وهتكلم في العموم مش في القضية.
ينظر له عزت وترتسم الابتسامة المقتولة على وجهه:
- أنا ماعنديش مشكلة، لحد ما مكرم يجي.
- أكيد سعادتك، طبعًا لو الكلام ماعجبش حضرتك إنت ليك مُطلَق الحرية إن...
يقاطعه عزت بنظرة هادئة وكلمات باردة:
- إنت بتشكك في قدرتي على إدارة الحوار ولا بتعرض مؤهلاتك لإدارته.
يسكت كمال لثوانٍ قبل أن يتحدث بهدوءٍ حائرٍ:
- تمام، أخُشّ في الحوار على طول.
يسكت كمال لثوانٍ قبل أن يصل إليه فنجان قهوة كان يريده ولكنه لم يطلبه.
- إيه رأي حضرتك في روح القانون؟
- رأيي في المفهوم الحقيقي، ولا في اللي إنت بتحاول تبيعهولي.
ينظر له كمال رافعًا حاجبيه:
- سيادة المستشار، أسهل لي ولحضرتك إنك تُعاملني إني ساذج أفضل ما في كل ردّ تحاول إنك تثبت إني غبي، خلي الواقع إني سذج وأتكلم، أو قولي إنت سذج امشي اطلع بره وأنا هتفضل بدون زعل.
ينظر له عزت وهو يفهم ما يرمي إليه، ولكن كنوعٍ من التسلية أو القضاء على الملل يقرر عزت استكمال الحديث.
- روح القانون هي تحكيم القاضي لعقله في قضايا التي يعد استخدام النصوص الصريحة بها إلى حكم مجحف أو غير منطقي، دا باختصار شديد.
- يعني قصد حضرتك إن القانون يقر أن نصوصه في بعض القضايا قد تحتاج إلى عقل وقلب القاضي للحكم على شخصٍ ما.
- القانون مابيقُرش حاجة، وعقل القاضي فقط مافيهاش قلب، إنت خريج حقوق ولا خدمة اجتماعية.
ينظر له كمال رافعًا كفه قليلاً من على المنضدة بزاوية تجاه عزت.
- النظريات والأخ مونتسكيو قالوا إن في حاجة اسمها روح القانون وكان كل الغرض منها عدم الاستخدام التجريدي للقوانين.
تضيق عيني عزت نصف ملليمتر.
- الغرض من السؤال.
ينظر له كمال وهو يحاول نزع أيِّ نظرة سلبية تجاه عزت.
- حضرتك بتستخدم روح القانون؟
يرد عزت بحزمٍ:
- طبعًا.
يرد كمال بصوتٍ منخفضٍ:

- حد تاني غير حضرتك يعرف الكلام دا؟
- بمعنى..
ينظر له كمال بشيء من الأسف المحترم.
- لا يا افندم، مصر كلها تختلف معاك.
- والله أنا مش مطالب بإني أثبت لحد حاجة، أنا مُطالَب بس أعمل شغلي بالطريقة السليمة، وكل واحد بعد كده ليه رأيه الشخصي.
يقاطع كمال:
- بس أحكام حضرتك قاسية.
ينظر له عزت وهو يستعيد هدوءه:
- هل فيها شيء مخالف للقانون؟
يردّ كمال بحزمٍ:
- لا طبعًا.
- يبقى مافيهاش قسوة.
- بس مقارنة بأحكام أخرى لقضاة آخرين.
يقاطعه عزت:
- مفيش معيار، ماتفكرش حتى في المقارنة، لأن مفيش معيار.
ويسكت لثوانٍ قبل أن ينظر لكمال بتركيزٍ:
- سوء استغلال كلمة روح القانون هي أحد أسباب سوء تطبيقه، الناس بتبص لمصالحها، وفي تطبيق روح القانون هناك دائمًا خاسر وحيد.
- اللي هو...
- العدالة، القانون مش هدفه إنه يفصل في القضايا بين الناس فقط، الهدف الأساسي هو تحقيق النظام، كل ما كان القانون بيطبق بحزم وبقواعده كل ما كان رادع لتكرار حدوث المخالفة أو الجريمة، وانت بتبُص لأي قضية، بتبص للجاني والمجني عليه بس، حكم هيصدر لحد وضد حد، لكن حق العدالة، حق المجتمع، احترام نصوص القانون، إن يكون الحكم زي السيف يفصل ما بين الناس، لكل واحد نفسه ضعيفة لما يشوف الحكم بيطبق بانضباط، هيفكر 100 مرة قبل ما يمشي خطوة تحطه قُدَّام المحكمة، هي دي العدالة، حكم منصف للجاني والمجني عليه والعدالة، مش مجرد فض اشتباك بين اتنين، أُمَّال إنت فاكر له الإسلام خلَّى عقوبة السرقة قطع اليد، عشان ماحدِّش يفكر...
وينظر لكمال في هدوءٍ:
- القضاء مش دائمًا عادل، ساعات القاضي بيبقى عارف الحق فين، لكن مابيقدرش يحكم بيه، بيحكم بالقانون، ودا المفروض، قد يكون حكم ظالم لجميع الأطراف من وجهة نظرهم، ولكنه هيكون تحقيق لوجهة نظر إن القانون هو اللي بيحكم، مش ميول الناس وقلب قاضي اللي يقول مين صح ومين غلط، فقط القانون.
يصمت كلاهما للحظاتٍ يعلو فيها صوت الشيشة، وينظر له كمال والحيرة بدت في الظهور على وجهه ونبرة صوته
- من غير ما أضايق حضرتك، أنا مش مقتنع.

يبتسم عزت:
- مافيهاش ضيق، إنت لسه صغير والتجارب قُدَّامك كتير وهتقتنع بالوقت، أو هتحتار أكتر.
يبتسم كمال وهو يتحدث بسخرية:
- أكتر من كده..
يعتدل عزت في جلسته ويميل ناحية كمال الذي يحني رأسه بضعة سنتيمترات ويميل هو الآخر بتركيز كرَدِّ فعلٍ للاستماع لعزت في تركيزٍ.
- القانون نصوص مصمتة، زي قوالب الطوب، تطبيق مجموعة قوانين هو رص بعض القوالب لتشكيل شكل الحكم النهائي، المشكلة إن تركيبة الإنسان عبارة عن مشاعر وأغراض وشهوات واندفاعات، ودي عاملة زي المياه، مالهاش شكل ثابت، فرص سيطرة الصلب على السائل إنه يفضل صلب، لأنه لو طري ممكن يدوب، ويختفي جواه ما يبانش، وقتها ماينفعش يحكم بين شخصين في دور طاولة.
لم يكن غرض عزت إقناع كمال بأي شيء، عزت يعلم جيدًا أن البشر يسيرون خلف أهوائهم، وأي شيء سيقوله قد يخرج من الإذن الأخرى، هو فقط يقتل الوقت، كمال الذي أتى ليقنع، يجد نفسه يصير تلميذًا لآخر من كان يريد أن يكون معلمه، حد السيف الذي لا يقتنع بل يقنع، برغم أن تلك اللحظة تجمع إحساسين مختلفين للشخصين، ولكنها تعد أهم لحظة في قضيتهما معًا، كمال الذي أتى بحثا عن رمية نرد ناجحة على طاولة عزت، يجد نفسه يخسر كل ما راهن به، والأصعب أنه أصبح مستمعًا لا متحدث، يقتنع لا يقنع، على شفة أن يرى العالم بعين عزت السوداء، لكنه في نفس الوقت كسب شيئًا هامًا، اهتمام عزت.
عزت وجد في كمال وسيلة جيدة للترفيه وقتل الوقت، يتسلى بإثبات له كم هو ساذج، ويستمتع بنظرة الهزيمة في وجه كمال، فرصة جيدة لقتل الملل أوفر من كل الاحتمالات الأخرى.
بعد دقيقتين من الصمت، يقطع عزت الصمت:
- سمعت قبل كده عن قضية خليل الطايل.

الفصل السادس
الشريط الأخير

عندما نريد إثارة الرعب نرتدي قناع الشيطان، ولكن عندما يريد الشيطان إثارة الرعب فهو يرتدي قناع الإنسان.
- كنت لسه في الجامعة، وكان والدي بالفعل قاضي وكان أشهر مني يمكن على أيامه، وبالتأكيد كان أقوى وأدق، إحنا أساسًا من سُكَّان مصر الجديدة، المهم.. خليل الطايل دا كان ساكن على بعد شارعين مننا، بس بالطبع ماكُنَّاش نعرفه، كان في الثلاثينات، المفروض إنه رسام هو عايش على فلوس أهله ومحل الملابس اللي بيديره أخوه، كانوا ناس من اللي نقدر نقول عليهم مستريحين، وهو بيرسم في هدوء وفي حاله، كان شخصية من الناس بتقول عليهم جنب الحيط.
يسكت عزت بينما يشير للقهوجي بتغير حجر المعسل فيأتي الآخر مهرولاً:
- كان فيه في العمارة بواب، وكان ليه بنت 10 سنة، وكانت طبعًا طالعة نازلة العمارة، كأي بنت أي بواب كسول فبدل ما يبص إنه ولاده يطلعوا أحسن منه مشغلهم ونايم هو تحت، والجيران كلها ناس طيبة وبنت حلال، وفعلاً كان وقتها مفيش في الحي كله جريمة واحدة حصلت، على الأقل من أول ما أنا اتولدت.
يسكت للحظة وهو يسحب نفس من الشيشة في هدوء، ثم يستكمل:
- كليشيه، البنت مغتصبة ومقتولة في صفيحة الزبالة اللي في شارع جنبه، اللي هو كان الشارع بتاعنا، اللي قتلها حطها في شوال ورماها في صفيحة الزبالة، بوليس بيدور على أدلة، بيلاقي معاها منديل خليل أو حاجة كده مش متذكر.
نفس طويل، دخان كثيف..
- أنا رُحت المحكمة وقتها، وشفته، إنسان غلبان، شكله ساذج وحط نفسه بطيبة قلبه في موضع الشبهة الأول، والدي اللي كان ماسك القضية، اتكلمت معاه قبل الجلسة الأخيرة بيوم، كان واضح إن هيديله الإعدام، مفيش أي حاجة غير دليل واحد، مش قوي، بس كان كافي لوالدي، يمكن كمان إن مفيش حد اتجاب سيرته غيره، ماكانش فيه مشتبهين أساسًا.
يظهر اهتمام بالغ على وجه كمال في تلك الفقرة.
- في الجلسة الأخيرة يظهر أخوه وأصدقاؤه، ويعملوا سيناريو لإنقاذ خليل إنه كان سهران معاهم، وفي كذا شاهد وكذا دليل، فيتحكم له بالبراءة بعدها، ودا كان حكم سعيد للجميع، ساعات بتضطر تعمل الشر عشان الخير، والغاية تبرر الوسيلة.
ينظر له كمال:
- بالسهولة دي.
- أكيد، الواقع بيحكم، في دليل يبقى في حكم، مفيش دليل، مفيش قضية.
ينظر له كمال بهدوءٍ:
- وخليل كمل حياته اللي كانت هتضيع بسبب منديل.
يبتسم عزت بسخرية:
- أكيد، وقابلني في الشارع واتعرف عليَّ وشكر في والدي كتير، واتعرفت عليه أكتر.
- وبقيتوا اصحاب بعد كده.

- طبعًا شُفته في الشهر اللي بعد الحكم خمس مرات تقريبًا.
- طيب كويس.
ينظر عزت لثوانٍ إلى الفحم، ثم ينظر إلى كمال في أسفٍ:
- للأسف بعديها بكمان شهر، لقوة في البيت متكتف وفي حدّ مكسر إيديه ورجليه، وسنانه كانت مرمية علي الأرض في كل حتة، عمل دا كله بعد ما كان قطع أغلى ما يمتلك الرجل وحطه قُدَّامه في شفشق المياه، معالم وشه كانت ثابتة على منظر الهلع، واللي قتله اتبول عليه مش عارفين قبل ما مات ولا بعد، بس تقريبًا كان بعد ما فقعله عينيه.
للحظات كمال يشعر أن معدته ستخرج من فمه في الثواني المُقبِلة، وسط برود الراوي الذي أمامه الذي يحكي تلك الأحداث كأنه يتحدث عن وصفة عمل الكريم كراميل، فيشير إلى القهوجي في محاولة لأن يداري توتره وقولونه العصبي.
- قهوة مظبوط.
يبتسم عزت وهو ينظر له وهو يستكمل:
- طبعًا البواب ماكانش موجود لما الحكومة جت، طبعًا إحنا عارفين ليه بس مش هو دا المهم، كان ليَّ الفرصة نظرًا لأن البوليس يعرف أنا مين وأبويا مين سمحوا لي دخول البيت بعد الجريمة، أبويا كلم الضابط بناء على رغبتي وسمحلي بإني أخُش أشوف المذبحة، البيت كان مليان لوحات كتير، كان فنان فعلاً واكتشفت دا وقتها، كان في لوحات كتير فيها ستات عريانة وحاجات مريضة شوية، الحاجات المبتذلة اللي تجمع ما بين الشيطان وجسم المراة العاري والهوس بتاع الشيطان والشر اللي كان في العصور الوسطى.
ويسكت للحظة:
- وكان في كاسيت، وشرائط كتير كانت متسجلة، شغلتها وسمعتها أنا والظابط.
تصل القهوة في وقت قصير فيشير له وهو يستكمل:
- كان شخص منظم جدًّا، بيسجل مذكراته وحكمه وحاطط كل مجموعة شرايط بيتكلم فيها عن حاجة في مكان لوحدها ومديها رمز من حرف ورقم، قلبنا فيها لقينا بيتكلم عن حاجات كتير وتجاربه في الحياة، اتكلم عن تجاربه الجنسية مع الستات شوية ومع الرجالة شوية، ومع الاتنين مع بعض، المهم إنه لما زهق، والملل الجنسي أصابه قرَّر إنه يجدد وحط البنت هدف، كان بيحكي تفاصيل مرعبة للأمانة، إزاي كان بيقربها منه بالهدايا، بنت بواب مفيش فلوس ولا رفاهية ولا حنان، وجالها عمو الطيب، اللي فضل وراها واداها كل حاجة، وبعدها حبسها يومين عنده لحد ما روحها طلعت، ورسمها بعد ما ماتت في لوحة سماها سقوط الملاك.
يشرب كمال القهوة فتضطرب معدته أكثر، ويكح عدة مرات وعزت ينظر له بهدوء حتى يهدئ قبل أن يستكمل في بروده اللانهائي المعتاد:
- إنت شكل القصة مش ماشية مع معدتك.
يرد كمال بصوت محشرج:
- شوية، ممكن تقولي السبب من القصة بسرعة.
- القصة كلها، إن القاضي راغب الدويني ماكنش يعرف القصة دي كلها، كان قُدَّامه بس دليل ضعيف، بس هو قرر إنه يلتزم بالقواعد، والتزامه دا، كان هيحقق العدالة الكاملة، ولما جت الشهادات بعدم تواجده في مكان الجريمة وقت حدوثها، أخد براءة بالدلائل اللي عرضت عليه،

المستشار راغب كان عارف إن كل الكلام دا كدب، بس هو اضطر بالدليل اللي قُدَّامه، رغم إنه من داخله عارف إن دي فبركة، وعارف إنه ممكن بإحساسه يدي الواد إعدام وماكانش حد هيعترض، لكن لعب اللعبة بقواعدها صح.
وينظر إلى كمال:
- أنا بالنسبة لي في قضيتك، عندي قتيل وقاتل والجريمة حصلت قُدَّام الناس، وكل واحد هيطلع بقصة لغرضه الشخصي، ومحتاج إني أسمع جميع الأطراف المعنية وأحكم حكم يرضي الناس كلها، أكيد دا حلم أهبل.
يفيق كمال من هلاوسه:
- القضية مختلفة.
يرفع عزت حاجبه:
- دا اللي انت مُطالَب تثبته في المحكمة.
يسكت كمال الذي بقدر ما يشعر بالقرف للقصة، ولكنه لا يخفي استمتاعه الداخلي بالحوار، غير أن آخر جملة قد تخفي في أحشائها تلميحًا يزرع أملاً.
- بس قضية مريعة بتاعت خليل دي.
ينظر له عزت وهو يسحب نفسًا عميقًا من الشيشة:
- إن كل دا ماحيَّرنيش، أنا اللي فضِل مِحيَّرني في القضية لفترة دي حاجة تانية.
ينعقد حاجبا كمال:
- الشريط الأخير.
- إيه الشريط الأخير دا؟
- جنب جثته، أو لو أكون دقيق في الأوضة كان في كاسيت تاني متكسر، جوّاه الشريط الأخير لخليل.
ينزل كمال فنجان القهوة الذي كان يهم بالارتشاف منه بسرعة:
- وكان في إيه؟
- كان مسجِّل حوار بينه وبين البنت، وهي تقريبًا كانت متكتفة وبتعيط إلى نهاية التجربة.
ينظر كمال إلى الأرض:
- قذر..
- مش هي دي النقطة يا قصير الرؤية.
- أُمَّال إيه؟
- خليل كان بيسمع الشريط دا للشخص اللي تقريبًا لما سمِع الشريط كسر الكاسيت وبعدين عمل فيه دا كله.
غيمة سوداء من السباب النابي تمر بعقل كمال على تلك القصة وأحداثها المرعبة، ويظل يسعل بهيستيرية، بينما ينظر له عزت بتعجُّبٍ:
- إنت إزاي محامي وبتعمل كده، مادخلتش مشرحة قبل كده ولَّا إيه.
ويبتسم عزت بسخريةٍ، وحين يستعيد كمال أنفاسه ينظر لعزت.
- حضرتك بتحكيها كأنك بتوصفلي طبق اليوم.
- أنا بحكيلك واقع وأحداث حقيقية، المفروض أعملك إيه.

- لا مفيش، بس من فرط الواقعية أنا كنت سامع موسيقى تصويرية ورا صوتك.
ينظر له عزت وتختفي الابتسامة:
- المهم، إنت فهمت حاجة.
ينظر له كمال بعد أن يستعيد جزءًا أكبر من هدوئه.
- أكيد، دليل مادي قوي أو لا شيء.
شيء من الرضا في نظرة عزت لكمال، كمال يصمت قليلاً قبل أن يهم بالرحيل:
- سيادة المستشار، قبل ما أمشي سؤال أخير.
- اتفضل.
- ماعرفتش ليه خليل كان مشغل الشريط دا للشخص اللي قتلوه.
يبتسم عزت ويسند بظهره على المقعد وهو ينظر لكمال بنظرة ثاقبة بها لمعة ساطعة لسببٍ ما.
- عرفت.
ويسكت للحظة ثم يستكمل:
- بس دي جزء تاني من القصة، ممكن نكمله وقت تاني.
لمعة العين مع انعقاد حاد في حاجبين كمال الذي يجاري الحوار.
- دا معناه إني أقدر آجي لحضرتك تاني.
يعود عزت إلى وضعه الجسدي العادي ويخرج الهاتف من جيبه وينظر به، وهو يردُّ ببرودٍ:
- أكيد.
يفهم كمال فيقف ويستعد للرحيل.
- بعد إذنك يا افندم.
- اتفضل يا كمال بيه، أشوفك بعد الجلسة الأولى.
يهز كمال رأسه بالفهم ثم يستدير ويترك المقهى، ويسير ليستعد إلى رحلة العودة إلى البيت، وهو يفكر، سعيد بمقدرته على فهم متطلبات عزت برغم صعوبة تحقيقها، إلى جانب قدرٍ من الفضول جيد لمعرفة نهاية قصة خليل، أو كيف كان مشهد النهاية، كل هذا يدور في عقله حتى يصل إلى المنزل، وهو يفكر في الشريط الأخير.
***
- ننتقل للسؤال الأخير في اللقاء، إزاي حضرتك شايفة قضية شيماء انعكاس لجزء من مشاكل المصرية في المجتمع المصري المعاصر.
تسأل المذيعة ذات الشعر الأحمر الطويل السيدة ماجدة محرز التي تعرف كيف تقف أمام الكاميرا وكيف تتحدث كامرأة مجتمع راقٍ مُظهِرًا ولكنها تجيد التحدث في ما يخص عامة الشعب بطلاقة، مما يوضح حجم الخبرة والذكاء التي تمتلكهم، ولكنها لا تزال تملك هيئة جيهان السادات بعض الشيء.
- قضية شيماء ممكن تكون بتحصل لآلاف أو ملايين البنات اللي عايشين في مصر والوطن العربية، القضية مش حاجة جديدة برغم إنك لو حضرتك قريتي تحقيقات النيابة، وشهادات شهود القضية، وقربتي من القضية بعمق هتكتشفي إنها كارثة بكل المقاييس، دا واحد فرغ حياته لمطاردة واحدة وتحويلها من فرد صالح في المجتمع، إلى واحدة على مفسدة، الله يرحمه طبعًا بس

التحقيقات نفسها قالت كده، بس أنا عارفة إن أكتر سؤال سمعته الفترة اللي فاتت، ليه بالذات قضية شيماء غريب اللي إحنا اتبنيناها.
- فعلاً يا افندم دا كان تاني سؤال عندي.
تنظر ماجدة إلى المذيعة بتركيز:
- إن المرأة الضعيفة اللي مالهاش أي قوة، لما حبت تتصدى لشخص بيدخل حياتها ويدمرها ويتحرش بيها بالألفاظ وجسديًّا، وحبت توقفه عند حده ودافعت عن شرفها وأمنها وحياتها، تقف قُدَّام المحكمة وتتهم بقتله وتكون متهمة ومهددة بالإعدام، القضية دي لو اتحكمت فيها بأي حكم غير البراة، دا يبقى المجتمع بيدّي الضوء الأخضر لكل واحد نفسه يتحرش أو يعمل اللي هو عايزة في أي واحدة هو عايزها وتتحول لحاجة أسوأ من الغابة، دا معناه إن لو حد حب يغتصبك وضربتيه هتكملي حياتك في السجن.
تسكت لثوانٍ قبل أن تستكمل بطبقة صوت عالية وأكثر صرامة:
- القضية حساسة جدًّا، وقضية مجتمع، الحكم فيها هيكون رسالة هامة، لو اتحكم فيها بالبراءة هيكون انتصار عظيم لكرامة المرأة ولحقها الطبيعي في الحياة في أمن، وإنها حقها مشروع في الدفاع عن ضعفها الجسدي والبدني والتي خلقها الله به أمام الرجل، الذي يستغل بعض من لا يملك أن يقال عليه لفظ رجل أو ذَكَر قوته الجسدية كأي حيوانٍ، لممارسة العنف مع المرأة سواء كان في التحرش باللفظ أو جسديًّا، حتى إن كانت تلك المرأة بنته أو زوجته، ليس لأحد الحق ممارسة العنف مع آخر مستغلاً قوته الجسدية، فما بالك برجل أمام امرأة، فقط من أجل مَطلبٍ غَريزيٍّ لا يقال عليه سوى أنه أدنى صورة الإنسانية وأحقرها.
تنظر لها المذيعة بإعجابٍ وتسألها:
- أتفق مع حضرتك طبعًا، ولكننا نثق في القضاء المصري الشامخ.
تنظر لها ماجدة ويرتفع حاجبها الأيمن ملليمترات.
- طبعًا، مفيش حد بيشكك في القضاء، بس ساعات بيكون لينا تعليق يجب أن يؤخذ في الاعتبار.
تنظر لها المذيعة باندهاشٍ، لتستكمل ماجدة:
- القضية دي مختلفة، دي قضية مجتمع، وماينفعش قضية رمزية زي دي، توكل المحكمة الحكم فيها، لأكثر قضاة مصر تشدُّدًا في أحكامه، المستشار عزت الدويني، كلنا تابعنا وشُفنَا حكمه في قضية المستشفى، إزاي قضية بترمز لواقع مجتمع ومشكلة حقيقية، يتم النظر فيها فقط لإجراءات القضية.
المذيعة تقاطعها:
- مدام ماجدة استأذنك إننا لا نستبق الحكم في القضية، ونترك للقضاء الحكم العادل فيها بدون توجيه أي ملاحظات للقضاة:
ترد ماجدة وهي تنظر للمذيعة نظرة حادة:
- ما القضاء في النهاية هيحكم مهما اعترضنا، بس يتمّ مراعاة المجتمع في الحكم وإن أي قرار له انعكاس على المرأة اللي ماشية في الشارع، مش أكتر.
- طبعًا يا افندم.
وتنظر إلى الكاميرا:

- في نهاية اللقاء، بنشكر الأستاذة ماجدة محرز، مديرة جمعية امرأة شرقية المدافعة عن حقوق المرأة في الوطن العربي ومصر، ونشكركم جزيلاً وتصبحوا على خير.
***
زحام أمام المحكمة
الجلسة الأولى
تصل سيارة الشرطة التي تقل شيماء، لتنظر هي من نافذة البوكس الصغيرة، الكثير يقفون رافعين لوحات من ورق ومن قماش عليها اسمها، بينما تقف قوات الشرطة لتأمينها حتى باب المحكمة، شباب وشابات من عمر المراهقة حتى الخمسينيات، يقفون يهتفون باسمها، لم تكن تحلم بكل هذه الشهرة التي لم تطمح أن تدخلها من هذا الباب، ينادونها، تسمع كلماتهم وسط ضوضاء الجنود والظباط الذين يحاولون تنظيم المشهد.
- إنتي قوية يا شيماء.
- اجمدي يا شيماء.
- شيمو، شيمو، شيمو.
- إنت صح، هُمَّا غلط.
- كلنا وراكي.
تنظر لهم بتأمل، كل هذا لا يرمي بذرة أمل واحدة، وتلمح العديد من الكاميرات والصحافة، تنظر إلى المشهد كله لثوانٍ، تقف بالسيارة وتستعد للنزول، ينظر لها ضابط.
- جاهزة يا شيماء، يلا بينا وربنا هيكرمك.
تنزل وتنظر لهم تتساقط الدموع من عينيها، ترفع يدها وتضم أصابعها إلى كفِّها في علامة القوة، تفعل ذلك بشكل تلقائي شكرًا لهم لا أكثر، لتتعالى الأصوات، ويبقى الأمل داخلها حبيسًا، وتسير مع الضباط والجنود بينما يناديها المئات الواقفون، حتى تدخل المحكمة، وتسير إلى القاعة، وسط تصفيق بعض الحضور من الواقفين داخل المحكمة، وقلبها مقبوض وعقلها تتخبط تروسه وتتكسر في بعضها البعض.
يجلس كمال داخل القاعة كان قد وضع الأدلة التي لا يملكها في أوراقٍ، كل دليل في ورقة منفردة، أمامه كأوراق الكوتشينة، ينظر إليها، ويضع كُلًّا منها أمامه، ينظر ويرتب الأول فالثاني، ثم يجمعهم مرة أخرى ويعيد ترتيبهم، ثم ينظر إلى الافتتاحية التي حضرها، القولون العصبي كان قد سبَّب له مشاكل الليلتين السابقتين، فأخذ احتياطه في دواء، ينظر خلفه لأهل شيماء الذين لم يجدوا سوى القرآن حليفًا لتلك اللحظات، ويجد يد محمود على كتفه تربِّت عليه فينظر له ليجده مبتسمًا، فيرد له ابتسامة يشوبها القلق، ولكنه يشعر بالدعم الكبير من الجميع.
على الناحية الأخرى يجلس سيد المليح في عصبية واضحة وهو يهز قدمه اليسرى ويعض شفتيه وبجانبه يجلس رشدي يتابع المشهد في ضيقٍ من فكرة الدعم الذي تلقاه شيماء، ينظر سيد لرشدي بغضبٍ:
- هي الناس اتجننت ولا إيه، بيهيصوا لواحدة سافلة وإيديها غرقانة دم.
يردّ له رشدي نظرة الضيق والغضب:
- حسبي الله ونعمة الوكيل يا أخي، الناس بقت وحوش.

بعيدًا عن هذا كله بما لا يزيد عن مائة متر، يجلس عزت في مكتبه يحتسي القهوة وينظر إلى الجريدة الصباحية التي جلبها الساعي، يضع الجريدة ويمسك فنجان القهوة بيدٍ، وبيدٍ أخرى يخرج الهاتف وينظر فيه، يقلب أسماء جهات الاتصال إلى أن يجد رقم مروة، فيبتسم ابتسامة صغيرة، ويضع الهاتف مرة أخرى في جيبه ثم يقف ليرتدي جاكت البدلة ويتأنق بهدوءٍ مرتديًا ملابسه الرسمية، ويسير خارج مكتبه ناحية القاعة بهدوءٍ وثقةٍ، ليلمحه الحاجب، ينتظره حتى يقترب منه عزت الذي ينضم إليه زملاؤه يحيُّون بعضهم البعض ويسيران ناحية القاعة يومئ عزت برأسه للحاجب الذي يدخل القاعة بصورة كلاسيكية انتهت منذ عقود.

- محكمة.

يقف الجميع بينما يدخل عزت والمستشارون ويجلسون في الوقت الذي يترك في والد ووالدة شيماء الحوار مع ابنتهما من وراء القفص.. لا يدعو الناس للجلوس، يجلس فور دخوله ببطء وراحة، بينما يجلس الحاضرون بعده بحكم العادة.

لا ينظر لأحد، ينظر للأوراق أمامه، أغلب المحامين يتقدمون إلى المنصة في المحاكمات، يمكنهم الحديث مع القاضي واستئذانه وطلب منه طلبًا وديًّا، بل إن الغالبية يتقدمون ويترافعون أمام القاضي بشيءٍ من استعراض القوة.

عدا عزت..

فالجميع يعرفه، يعرف أنه فقط هنا لتطبيق القوانين، ومن سيترك مكانه ويقترب بشيء من أملٍ؛ فالأفضل له ترك قضيته بأكملها والرحيل، يعلمون أن الرجل لم يأتِ ليضيع أيَّ وقتٍ، ليس هنا لسماع أي نوع من البلاغة، ويعتبر طول فترة المرافعة دليلاً على ضعف الأدلة، من لديه دليل قاطع فليقدِّمه أو ليصمت، لا يعبر علم مصر الموضوع بجانبه عنه، لكنه أقرب إلى علم الاتحاد السوفييتي، قويٌّ كالمطرقة حاد كالمنجل، وقاسٍ كلون الدم الأحمر.

بصوتٍ هادئ جدًّا:

- بسم الله، فُتِحت الجلسة نادي على المتهم.

بصوت جهوري:

- شيماء غريب السيد أحمد.

تقف شيماء وتنظر إلى الجميع الذين ينظرون إليها بنظرات مختلفة، في مشهد اقرب إلى الفانتازيا عن الواقع، تشعر أنها تشاهد مسلسلاً عربيًّا سخيفًا، ولكنها للأسف تملك دورًا فيه، ويجب أن تؤديه على أكمل وجه، على أمل أن تكون في الحلقة الأخيرة به، حُرَّة، القاعة بها الكثير من الوجوه الدافئة، وأيضًا كثير من نظرات التوعد..

لا تتحدث، تقف ساكنة..

في تلك اللحظة يترك عزت عينه من على الأوراق ويصوّبها ناحية شيماء الساكنة لتصطدم نظرته الباردة بعظمها، فيتجمد ريقها في حلقها.

- محامي المتهمة.

يقف كمال وينظر لعزت الذي يعيد عينه مرة أخرى للأوراق:

- كمال أبو الفضل، حاضر عن المتهمة.

كعادة عزت، كأنه لم يسمع شيئًا، لم يُبدِ أيَّ ردة فعلٍ وكأن لم يكن هناك أحد واقف أمامه من الأساس، يلقي السؤال ببرودٍ ولا يهتم بالرد، كمال يعرف ذلك، يعرف كما يعرف الكثيرون كيف

يدير عزت قضاياه، تمر كلفحة بردٍ من رياحِ ديسمبر، سريعة باردة قاسية على النفس المطمئنة، وغير معلومة النتائج.
- ممثل الادعاء.
- أفندم.
- اتفضل.
يقف وينظر ناحية هيئة المحكمة.
- بسم الله الرحمن الرحيم، السادة المستشارين الموقرين، القضية التي أمامنا اليوم واضحةٌ ولا تحتاج إلى شرحٍ، التحرش باللفظ موجودٌ ومُثبَت وهناك شهود على أن المجني عليه قام بالتحرش بالجانية، محدشً أنكر الجزء ده، التهديد بالاختطاف أو الاغتصاب مفيش إثبات عليه وليس هناك للمجني عليه أي سجِل بأي أعمال عُنف مشابهه، المجني عليه من عائلة ميسورة الحال، وأيضًا ليس لديه سجل إجرامي أو حتى مشاجرة، لكن بعتذر لهيئة المحكمة وأعيد إن التحرش اللفظي كان موجود، بس لا يعني أو يهمل الحقيقة، إن المتهمة خططت لقتل المجني عليه، وكانت في حوزتها أداة القتل، بالإضافة إلى أنه لم يكن قتلاً عاديًّا، بل كان قتلاً وحشيًّا، المتهم تم طعنُه زي ما تقرير الطبيب الشرعي في الخصيتين وفي عينه اليمني، وتوفى نتيجة طعنة العين بالتحديد، كان في إصرارٍ وترصُّد، كانت عارفة إنه مستنيها، ولم تحاول تغيير طريقها اليومي، بل توجهت إليه حسب شهادة الشهود، ووقفت قُدامه واستنيته لحد ما وقف قُدَّامها وبعدين قامت بالاعتداء عليه، وللعلم، المتهمة لم تتقدم بأي بلاغ ضد المجني عليه، لا بالتحرش أو الاتهام بالتهديد بالاختطاف، وإن كانت فعلاً تشعر بالخوف وعدم الأمان، فبدلاً من أن تتجه إلى الشرطة والطرق القانونية، اتجهت للوحشية والبدائية وأخذ الحق باليد، وحكمت وحدها على المتهم بالإعدام، سيدي القاضي، المجني عليه أخطأ، لكن ما فعلته المتهمة تستحق عليه عقوبة رادعة من أجل إقرار النظام، وإثبات أن الشرطة والقضاء هم الجهات الفاصلة للمنازعات، وليس أخذ الحق باليد، وشكرًا.
ويجلس والصمت ما زال يملك القاعة.
ما قاله يعبِّر عن دوره، هو الدور الطبيعي للنائب العام الذي يمثله، البحث عن حقِّ المجتمع، عن حق المجني عليه الغائب، وحتى هو يعلم عزت ويلعب على معرفته؛ لذلك كانت خطبته قصيرة بدون بلاغة، في النقاط الواضحة والتي تصيب الهدف، كُلُّ ما قاله صحيح، من وجهة نظر القانون، في أن المواطن يجب أن يسلك الطريق السليم في البحث عن حقه، في أن يشكل القانون نظامًا طبيعيًّا يجعل حقوق البشر محفوظة، ومن يعتدى على حق غيره، يقف القانون أمامه ليستعيد الحق المُهدَر، وليجبر الجميع على احترامه، وليجعل الحياة في الدولة آمنة، والمجتمع في سلام، يجب أن يقف في صف حق المتهم الذي لا يملك الدفاع عن نفسه للغياب، وإقرار العدالة للمجتمع، ولكن.. هذا إن كان النظام فعَّالاً، والقانون بدون ثغراتٍ، والحقيقة واضحة، كُلُّ مَن في القاعة فيِمَن يمثلون القانون يعلمون تلك المعضلة، للأسف هذا ما كان في رأس كمال تلك اللحظة.
- الدفاع يتفضل.
يقف كمال ويمشي خطوة تجاه المنصة ويقف، ينظر تجاه المستشار الذي يجلس على يمين عزت.
- السادة المستشارون، سيدي القاضي..
ويسكت لحظة ليتحدث عزت:
- اتفضل يا افندم.

يقاطعه عزت بنبرة أعلى من صوته العادي بدرجة، ما لبس أن انتهى حتى بدأ كمال:
- زي ما قال السيد ممثل الادعاء، التحرش اللفظي موجود، أنا بضيف بأقوال المتهمة والجسدي أيضًا كان موجود، وتقرير الطبيب الشرعي بيقول إن المتهم رحمه الله، كان تحت تأثير الكحول والحشيش، دا بالإضافة إن تضمَّن التقرير أن ملابس المتهم الداخلية كان فيها بقع مَني، طبعًا ليس لي أن أخمن كانت نتيجة إيه، بس كل الدلائل دي بتقول إن المجني عليه ماكانش في حالته العقلية السليمة، ودا بيدي مصداقية أكتر لأقوال موكلتي بتهديدات المتهم، دا غير تحريات الشرطة وشهادة بعض الشهود عن سلوكه.
يقاطعه ممثل الادعاء:
- كل اللي حضرتك قُلته دا بيدخل في إطار الحرية الشخصية، والمجني عليه سجله سليم، والشهود شهادتهم متضاربة.
يرد عليه كمال بهدوء وابتسامة:
- لو كل الأدلة اللي قُلتها ورَدّ حضرتك إن سجله سليم، فإنت بتتجاهل كل الشواهد وتجرد القضية للحظة القتل، وكأن ماكانش في دوافع ليها.
- لو كل دافع أدى إن حد يشيل سكينة معاه، يبقى بكرة البلد هتبقى بحر دم.
تتحول لهجة كمال إلى شيء من الحدة:
- ونقطتك إن المتهمة شايلة سكينة في شنطتها، طيب أنا ممكن أقولك إن المتهمة كانت شايلة سكينة عشان رايحة تقمع بمية عند واحدة صاحبتها، وأجيبلك شهود بكده وتبقى اختفت القضية.
صوت مطرقة عزت تقطع الجميع..
طرقة واحدة دون أن ينظر حتى إلى الساحة، 5 ثوان ويضع المطرقة جانبًا.
- شهود الدفاع جاهزين؟
ينظر كمال إلى المنصة:
- يا افندم في شاهد رئيسي صاحب الكشك بنحاول نوصل له.
يستكمل عزت بهدوءٍ:
- ممثل الادعاء.
- اللي تشوفه يا افندم.
- محامي الدفاع عندك 3 أسابيع فقط.
ويسكت للحظات وهو يمسك المطرقة، ثم يكمل:
- تؤجل القضية لجلسة 29 أكتوبر، رُفِعَت الجلسة.
***
- الجلسة عدت بسرعة أوي.
- شيء متوقع، إنت ماحضرتش قضية لعزت الدويني قبل كده.
- لا طبعًا كان ليَّ الشرف قبل كده يا عم كمال، بس ماكانتش كده.
ينظر كمال لصديقه محمود وهو يمارس عادته المفضلة ويمسك بيده لَيّ الشيشة وباليد الأخرى يحاول اعادة ترتيب الجمر على حجر الشيشة، فيستطرد محمود:
- بس إنت عارف؟..
- أكيد.

- الواد بتاع الكشك دا مش هنلاقيه.
- عارف..
- إنت بتأجل عشان هتروح تشوفه بس.
- مفيش شهود، مفيش أدلة جديدة، اللي معانا هو اللي هنحارب بيه، بس آهي، تُعتبَر فرصة.
ينظر محمود لكمال بشيء من الحزن:
- أنا خايف يا كمال.
يبتسم كمال:
- من إيه بس؟
تزيد نظرة الجدية على وجه محمود:
- إنت القضية دي بقت حياتك، بقيت بتصورها إن العبور منها هيطلع على طريق النصر، والخسارةهحتكون النهاية، هي في الآخر قضية.
ينظر لمحمود رافعًا حاجبيه.
- أنا من أول ما مسكت القضية دي، اسمي نزل في الجرايد مرتين، دخلت جمعية دفاع عن المرأة وقعدت مع شخصيات شهيرة، وقعدت لحد دلوقتي مرتين مع واحد من أقوى قضاة مصر، أكيد القضية مختلفة، وفي من وراها مكاسب كتير، عشان كده بعاملها بطريقة مختلفة، وليها أولوية عن أي حاجة.
نفس عميق، رشفة قهوة، ويستكمل:
- بس أبقى أهبل لو اعتقدت إني مش ممكن أخسرها، بالعكس دا الاحتمال الأكبر، خصوصا مع عزت الدويني.
يقطع محمود الكلام:
- وأكيد أكتر بعد ما تيجي الجلسة الجاية من غير صاحب الكشك.
يبتسم كمال وهو ينظر لمحمود:
- وانت فاكر إنه مش عارف إن مفيش شاهد أساسًا، لا هو عارف، بس ماعرفش ليه مشي مع كلامي، أو هعرف، بس مش دلوقتي.
- المهم مايكونش بعد فوات الأوان يا كمال.
تتحول ابتسامة كمال إلى علامة استفهام على وجهه:
- أنا برضو نفسي أعرف كل حاجة قبل النهاية.
واستكمل الاثنان نظرهما من المقهى نحو الفراغ آملين أن يملأه الأمل..
ولكن يبقى الفراغ مجهولاً.
***
يدخل عزت من باب منزله، يجلس كعادته على الأريكة بعد أن خلع أغلب ملابسه، حان موعد المتعة..
يمسك بهاتفه ويبحث عن مروة، وبينما يهم بالاتصال، يرن الهاتف، ينعقد حاجباه ثم يرتفع أحدهم تاركًا الآخر مكانه.
شيرين طليقته..
- ألو.

- إنت ابتديت تبهرني الفترة اللي فاتت.
- في إيه يا شيرين؟
- مفيش، أنا بس بحب أسجل اعجابي بطريقتك في شد انتباه ابنك، وزيادة إعجابه بيك.
يعود الحاجب إلى أخيه لينعقدا معًا مرة أخرى.
- هو إيه اللي حصل؟
- ابنك كان مع زمايله واقفين قُدَّام المحكمة ورافع يافطة عشان البنت اللي اسمها شيماء، طبعًا هو ماقالش لحد إنه ابنك، بس واضح إنه معجب بأفكارك جدًّا.
ينفعل من الداخل، ومن الخارج تزداد لهجته جمودًا:
- وانتي إزاي يا هانم تسيبيه يروح لحد هناك ويعمل كده؟
- هو أكيد ماقالش حاجة، أنا فوجئت بيه لأنه المفروض كان رايح التمرين مع أصحابه الصبح، وبعدين واحدة صاحبتي قالتلي.
- طيب هو فين دلوقتي؟
- في البيت، في أوضته.
- أنا هكلمه دلوقتي.
- أنا مش مكلماك عشان كده، أنا بكلمك عشان تحاول تحسِّن علاقتك بيه مش أكتر، بلاش أسلوبك الناشف دا.
- أحسِّن علاقتي بيه، أدِّي البنت براءة يعني عشان سيادته يرضى عني، اقفلي يا شيرين أنا هكلمه.

تنفعل شيرين ولكن منعًا للشجار تكتم انفعالها بعض الشيء:
- اعمل اللي انت عايزه، كده كدا ماحدِّش بيهمك ولا كلام حد بيأثر فيك.
- سلام.
يغلق الهاتف وينظر فيه لثوانٍ، يبحث عن رقم كريم ابنه، يقف عليه للحظات.. يفكر، ماذا سيقول، ثم يتصل به..
لا يرد
مرة أخرى
لا يرد..
بالطبع لن يعيد الاتصال بشيرين، لن يعطيها الفرصة لتكون نقطة اتصال بينه وبين ابنه في هذا الموضوع، المواجهة هي الحل، ينظر إلى الرقم ويضع الهاتف بانفعالٍ، يذهب ليخرج زجاجة فودكا المعتادة، يجلس في الصالة وينظر إلى الهاتف، يمسكه ويخرج رقم مروة ويقف عليه، ثم يغلق الهاتف ويضعه على المنضدة ويصب كأسًا ويجلس بارتخاءٍ، وهو يفكر، لماذا ذهب كريم إلى هناك، هل محاولة لإحراجه، أم هو كباقي الشباب يبحث عن الانتماء في قضية رأي عام خاسرة، لم يكن يعلم إن كان غاضبًا مما فعله ابنه، أم أن هذا انفعالُ المفاجأة على ما أقدَمَ عليه، بأي حالٍ من الأحوال يوم الجمعة ليس ببعيدٍ، فليستعد لممارسة شيءٍ حقيقيٍّ من دور الاب الذي فقد جزءًا منه، كأسٌ آخر، وينظر إلى الهاتف، مروة أم مكرم، ينظر قليلاً حتى يختار الاختيار الأفضل لكل البشر: الفراش.

الفصل السابع
لماذا التي لا نهاية لها

الطرق عديدة أمامك، واختيار العقل حيرة، واختيار القلب غير مضمون النتيجة، لا تختَر، واترك نفسك للتيار، لا تختَر، فقط واجه، واستكمل الرحلة.
تلك الليلة اشترك ثلاثتهم في شيء واحدٍ..
شيماء التي تنظر من نافذة الحجز الصغيرة بزاوية، تحرك رأسها وعينيها، لترى نجمة صغيرة تقبع في ركنِ النافذة الصغيرة، وهي تجلس على الأرض في حزنٍ شديدٍ، لم تفلح تلك النجمة في إدخال أي أنواع السرور إلى قلبها، ولكنها أعطت شيئًا من القوى للأمل حتى يطارد يأس شيماء، القضية والقاضي يقفان في الظلام، ولكن إيمانها بمعرفة الله لما في القلوب ترسم خطوط الطمأنينة داخلها.
كمال يرى نفس تلك النجمة تنظر له ما بين دخان الشيشة وهو جالس على القهوة الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، بهدوء وأمل ينظر لها، ويسألها المستقبل، ولكنها لا تجيب، كمال الذي جعلته تلك القضية يعيش أعظم أيامه، قد تطيح به هو شخصيًّا، أصبح يشعر كأنه يسير بدراجة من ذهب على حبل ما بين قمة هرمين في الجيزة، يملك ولكنه لا يسيطر، والعد التنازلي للسقوط قد بدأ بالفعل، هل كان مُحِقًّا في صُنع كُلِّ تلك الضجة حول القضية، لقد فعل مثل المقامر السيء، وضع كل نقوده على أرض الرهان فأجبر من حوله على فعل الشيء ذاته، والرابح يأخذ كل شيء، ويترك للآخرين الفراغ الأعظم.
عزت يقف في شرفة منزله مرتديًا بيجامة مريحة، يحمل كأسًا ممتلئًا، وينظر بهدوءٍ إلى السماء، إلى هذا الفراغ اللانهائي الذي ينظر إليه كأنه ينظر داخل روحه الذاتية، بكل ما يملك في الحياة، ولكن لا شيء يشفي القلب من الملل، في بعض الأيام يود لو أن قلبه كان ليّنًا قليلاً، لكنه لا يبوح بمثل تلك الأمنية الخيالية البسيطة إلا لنفسه، فإن الذي يشكل الإنسان هو مبادئه، التي تصنع له شكلاً وطعمًا ولونًا، لا أن يكون مثل تلك النجمة التي ينظر لها تقف بين آلافٍ غيرها، وإن غفل عنها لثانية فتضيع من عينيه، بل أن يكون كالشمس لمن يعيش في الأرض، ينظر عزت إلى النجمة ثم يغمض عينيه، لا لن يحلم بشيء أو يبتسم، لن تؤثر به نجمة عشوائية في السماء لوهلة، لن يحركه الخيال أو يربكه الوهم.. حتى الآن.
***

يوم الجمعة
عزت في السيارة في انتظار كريم ابنه، يعيد التفكير في ماذا سيقول له، هل يهاجمه، أم يشرح له، أم يتجاهل القضية ويتعامل بصورة طبيعية، كأي أبٍ مع ابنه، في النهاية هو لا يريد أن يزيد سُمكَ حائط الجمود بينه وبين ابنه.. ينزل كريم متأخرًا بضع دقائق، ويذهب إلى السيارة وهو يحاول ألا تلتقي عيناه مع عين والده الصلبة، يركب السيارة، ينظر له عزت وبداخله تناقُض من القسوة والحنان، ويختار أن يكون مختلفًا.
- صباح الخير يا كريم.
- صباح الخير يا بابا.

يدير السيارة ويقود في طريقه العادي الأسبوعي للنادي، يظل الصمت هو الموسيقة التصويرية إلى الرحلة، إلى أن يصل إلى النادي، المكان المعهود لهما.
- سمعت إنك رُحت مظاهرة.
ينظر له كريم بمشاعر مختلفة، ويرد:
- مش مظاهرة، دي وقفة.
- هو فيه فرق؟
- طبعًا يا بابا، أنا كنت بقف مع واحدة مظلومة، بحاول لأساند قضية، أنا ملعنديش مطالب، أنا في واحدة مظلومة وواقف عشان أشجعها وأسجل وقوفي مع الحق.
للحظات فكَّر عزت أن يدخل في نقاش مع كريم في الفارق بين الوقفة والمظاهرة، لكنه قرَّر أن يكون موضوعيًّا ويحاول أن يستوعب ابنه.
- طيب وحسيت إنك عملت حاجة مفيدة؟
- أكيد.
يسكت عزت الذي لا يريد شراء عداوة ابنه الوحيد بأي حال من الأحوال.
- أنا بس عايز أتأكد إن وقفتك دي ماكانتش عشان أنا اللي ماسك القضية؟
- لا طبعًا يا بابا.
- يعني لو كان قاضي تاني، كنت هتيجي وتوقف برضو؟
يبتلع كريم ريقه ثم يتمتم:
- لو قاضي قاسي برضو، أكيد.
العالم كله حكم على عزت باستخدام القسوة، فماذا يغضبه إن قالها ابنه الصغير هو الآخر.
- أنا فاهم وجهة نظرك، بس في يوم من الأيام لما تكبر هتفهم طبيعة شغلي أكتر وممكن تفهم موقفي.
لا يظهر على كريم التأثُّر بكلام والده، الذي يحاول عدم الاهتمام بدوره ويستكمل:
- ما بلاش نروح النادي ونعمل حاجة تانية.
- حضرتك تحب تعمل إيه؟
- نروح السينما.
يبتلع كريم ريقه لعدم تقبُّله فكرة أن يجلس للاستمتاع بفيلم مع والده متبلد المشاعر.
- مش عارف يا بابا، بس مفيش أفلام هتعجبك اليومين دول.
عزت المتردد في قراراه يقرِّر الانسحاب.
- خلاص يبقى النادي.
يبتسم كريم ابتسامة باهتة:
- النادي..
ويقود عزت السيارة إلى النادي ليوم آخر ممل.
***
- حاج سيد، في واحد بيسأل عليك تحت.
يقطع صوتُ عامل البوفيه أفكارَ سيد المليح الذي كان سارحًا في مكتبه وحيدًا.
- زبون ولَّا إيه؟

- لا بيقول عايز حضرتك في حاجة شخصية.
يأخذ سيد نفسًا عميقًا، ويخرج سيجارة ويشعلها.
- خليه يطلع، لما نشوف دا مين.
يختفي عامل البوفيه، يضع سيد بضع أوراق أمامه ينظر لها بلا اهتمام، يتابع كل أعماله كعادته بكل اهتمام، فالمال هو صديقه الوحيد في الدنيا الآن، وأمانه في رفاهية دائمة، ولكنه أصبح يسرح كثيرًا تلك الأيام وتفكيره منصب على القضية، يظهر الضيف الغامض على بابه، رجل كبير في السن تملأ وجهه التجاعيدُ والحزن، ويرتدي ملابس بسيطة المظهر، وجهه مألوف لسيد ولكنه لا يستطيع إدراك من هو.
- اتفضل يا بيه.
يشير سيد للضيف بالجلوس على الكرسي أمام مكتبه، الذي يجلس ويشرع في الحديث.
- البقاء لله يا حاج سيد.
ينظر للضيف بشكل تمثيلي بعض الشيء:
- ونعمة بالله، أؤمر يا بيه.
تتحول نظرة الضيف إلى خوفٍ وهو يتكلم برفقٍ:
- أنا غريب، غريب السيد.
يبدأ سيد في التعرف عليه ولكن يتريث وعيناه تضيقان ويميل بنصفه الأعلى ناحية المكتب حتى يلامسه بكرشه الثمين.
- مش واخد بالي.
يستجمع غريب شجاعته.
- أبو شيماء.
يقف سيدة مرة واحد لدرجة أنه حرَّك المكتب الضخم من مكانه، فيقف غريب معه ويشير له:
- إهدا يا حاج سيد وصلي على النبي، إنت راجل تعرف ربنا عشان كده أنا جيتلك.
الصدمة هي ما جعلت سيد يتجمد للحظاتٍ وعيناه تحمران نتيجة لغليان الدم في عقله، ويصمت ليستجمع نفسه، إضافة لكلمات غريب، فيتحدث وهو يطحن أسنانه:
- إنت جاي هنا عايز إيه، تقتلوا القتيل وجايين تمشوا في جنازته.
- أنا جاي أفدي بنتي، قولِّي طلباتك.
في تلك اللحظة اهتز شيءٌ داخل سيد، هل كل شيء يمكن شراؤه بالمال الآن، هل يوجد مبلغ من المال يقبله مقابل روح ابنه الوحيد، أليست هذه طريقته في التعامل، ولكن بغضّ النظر عن تلك المعركة الداخلية فهذا ليس له علاقة بالموقف الحالي.
- مفيش حاجة تفدي ابني غير إني أشوف بنتك بتتعذب وبتموت وبتتمحي من الوجود.
يتحدث غريب بشيء من الرجاء:
- اسمعني بس، أنا بنتي ماليش حد غيرها في الدنيا، أبوس إيدك، أنا هعملك اللي انت عايزه.
يبدأ سيد في الارتعاش، وكوم يديه على المكتب وهو ينفجر غضبًا:
- وأنا ماكانش عندي غير الشاب الطاهر اللي بنتك الوسخة قتلته.
يأخذ غريب نفسًا عميقًا وتتحول ملامحه ونبرته لشيءٍ من التحدي.
- أنا بنتي مش وسخة وماعملتش حاجة غلط، ابنك اللي حاول يخطفها.

ينفجر سيد في تلك اللحظة، وصوته يملأ الحي كاملاً مجلجلاً:
- يخطف مين يا زبالة، دا يشتريها هي وانت وبقية أهلها بفلوسه، وهي كانت مين يعني أساسًا، ولا حاجة.
فينفجر غريب وعيناه تلعبان في محجريهما، فهو رجل هادئ لا يعرف الغضب، والآن هو في قمته.
- أنا قُلت آجي أتفاهم معاك بس أنا غلطان، ما شابه أباه فما ظلم، ابنك كان إنسان مستهتر ومجرم، وبنتي بريئة، فاهم، بنتي بريئة.
يظهر رجال سيد على باب منزله نتيجة لصوته، فيشير لهم:
- خدوا كيس الزبالة دا وارموه بره المحل، ولو دخل تاني هقتله وأقتلكم كلكم.
يسير بسرعة خارج المكتب منعا من أن يعتدي عليه أعوان سيد ويصطحبوه دون حديث للخارج، بينما يجلس سيد إلى مكتبه والسيجارة بيده، يطفئها، ويُخرِج الهاتف، ويتصل.
- رشدي، أنا عايزك تخفي صاحب الكشك دا من على وجه الأرض لحد ما القضية تخلص، إديله اللي يطلبه ولو رفض استخدم معاه العنف.. اعمل زي ما بقولك حالاً يا رشدي.
ثم يغلق الهاتف ويجلس والدماء تغلي في عروقه.
- أنا جاي أفدِي بنتي.
كان سيقولها لو كان الموقف مختلفًا، لو كان ابنه هو القاتل، وها هي تعرض عليه كما يعرض كل شيء، مرت برأسه ذكرياتٌ طوال طريق الحياة الطويل، اشترى منهم كرامتهم وأحلامهم وأمانيهم، كانت النقود هي حلَّ كل شيء، غضب يشتعل بداخله، تهبط الدموع من عينيه، ليس حزنًا على ابنه تلك المرة، ولكن لأنه تأكد في تلك اللحظة أن ليس لكل شيء ثمن، وأن كل ما جمعه في حياته هو ترابٌ أمام قدر الله، يسحب نفسًا عميقًا وينظر إلى السقف.
- لا إله إلا الله، رحمتك يا رب.
ثم يفتح درفة مكتبه السفلى ويُخرج زجاجة فودكا أخذها كهدية من أحد مُصدِّري الموتسيكلات الصينيين في حفل تكريمٍ أقاموه له لتحقيقه مبيعاتٍ عالية، وكأس صغير، ويشرب لكي يهدأ.
***
يوم الأحد
مكتب عزت الدويني
يجس عزت وأمامه فنجان القهوة، يفكر في حياته تلك الأيام.. هو ذلك الشاب الذي سار على خُطى أبيه.. يعترف بأنه منذ قرَّر ألَّا تكون للمشاعر أولوية في حياته وهو سعيد أو على الأقل يشعر براحة بالغة في أن يفعل ما يريد.. يبحث عن حاجته ويقضيها دون الدخول في مهاترات البشر، غير اجتماعي، وماذا من الأصل فعل أيُّ شخصٍ بكونه اجتماعيًّا، سوى ارتباطات تحدث في مقابلها على منفعة أمام التزامات في عنقه مع من لا يمتون له بِصِلَةٍ قرابة، كثير من المقابلات التي لا تحمل سوى الغِشّ والتظاهر بالسعادة وقضاء وقت لطيف مع أشخاصٍ لا تثق في قدرتهم على اتخاذ القرار دون التخبُّط 1000 مرة داخلهم.
وحيد.. ليست مشكلته بأي حالٍ من الأحوال، إن الوحيدين في العالم قرروا تركَ كُلِّ اختيارات الأنشطة والترفيه في العالم، والتفرغ في البكاء والعويل على وحدتهم، وتفنيد متاعب القلب الوحيد، في حين أن النصف الآخر من العالم والذي هو مرتبط، يجد نفسه في رحلة البحث عن نصف

ساعة من الهدوء التام والوحدة، ولكن شيئًا ما دائمًا يدق على بابه من الوقت للآخر، شخص يقف خلف الباب الذي أغلقه ووضع كل قطع أثاث بيته خلفه كي لا يقرر حتى النظر من العين السحرية لمعرفة مَن الطارق، يمر من أمام الباب ويطرقه طرقتين ويردد:
- أنا قلبك، إن نسيتني فأنا لا زلتُ جالسًا أمام الباب أنتظرك.
ويتجاهله عزت، ويغلق أذنه حتى لا يسمع له حِسًّا، لم يفكر حتى في يومٍ من الأيام في النظر خلسةً من الباب للتأكد إذا كان بالفعل ينتظره بالخارج، أو حتى ما هو شكل ذلك القلب الذي لم ينسَه طول تلك السنين، وما النفع منه بأيِّ حالٍ، سيدخله إلى بيته ليذكره ما فاته من سعادة بسبب استبعاده، وكيف اختفى كُلُّ مَن حوله بسبب أنه أسقطه من حساباته، وقد يتدخل في عمله، ويحول بينه وبين نُطق حكمٍ قد يظهر عليه القسوة بالرغم من عدالته.
لا..
فليظل كذلك، عزت الدويني، ذو القلب المنفي
وليترك «لماذا».. التي لا نهاية لها..
ينتهي من فنجان القهوة، يجمع أوراقه ومقتنياته، ويضعها في حقيبته، ويحملها ليخرج من المكتب متوجهًا إلى باب المحكمة، وبعد أن غادر باب المحكمة متوجهًا إلى سيارته، يجد سيدةً تقف عند سيارته، يبدو عليها أنها سيدة بسيطة في منتصف الثلاثينيات، ترتدي ملابس تدل على أنها متوسطة الحال تحمل في عينيها خليطًا من الحزن العميق مع شيءٍ من الغضب، تتوجه ناحيته في ثباتٍ.
- سيادة المستشار عزت..
ينظر اليها بشيء من الاهتمام:
- أيوه حضرتك.
- أنا أبقى زوجة سمير محروس، فاكره حضرتك؟
بغضِّ النظر عن قوة ذاكرة عزت، لكن القضية لم تكن من بعيد، قضية رجل المستشفى الذي أنقذ ابنه ليقع تحت مطرقة عزت، لا تتغير تعبيراتُ وجه عزت بعد معرفة هوية الزائرة.
- فاكرُه يا افندم، إزاي أقدر أساعدك؟
تنظر له في حزن لثوانٍ قبل أن تستكمل:
- ممكن أسأل حضرتك سؤال واحد؟
- اتفضلي.
تنظر له والواضح أنها تكتم انفجارًا من غضبٍ ودموعٍ داخلها.
- حد استفاد حاجة من سجن جوزي كل دا؟
ينظر لها بثباتٍ:
- جوزك غلِط واحنا بنطبَّق القانون...
تقاطعه في حدة:
- أنا عارفة إنه غِلِط، أنا بسأل، حد استفاد حاجة؟
- القانون اتطبق.
- القانون يا سيادة القاضي بيتطبق عشان ينشر العدل ما بين الناس، مش عشان يتطبق والسلام.
ثم تسكت ثانية..

- حد استفاد حاجة من إن واحد يترمي في السجن 10 سنين عشان غلطة كان غرضها إنقاذ حياة.
ينظر لها بشيء من الحدة.
- أنا بطبَّق القانون، القانون مهمته حماية الناس وردع الجريمة، جوز حضرتك غلط وأخد جزاءه.
تبدأ الدموع في الانسياب من عينيها.
- إنت بتمثل بالقانون مابتطبقهوش، القانون مابيحميش حد والحرامية وقتَّالين القُتَلة موجودين في كل حتة وبيزيدوا، وبيتحاكموا وممكن يطلعوا براءة، قانونك دا بيمشي بالصدفة، اللي قدامه قاضي سهل ومعاه محامي كويس بيطلع، أنا جوزي غلِط آه، بس مش عشر سنين أفضل محرومة منه عشان قاضي عايز يبان إنه قوي قُدَّام الناس، كله رجع بيته وماحدِّش اتضر غيري، القانون ماعاقبش حد غيري، فرقت إيه معاك لو كنت إديتله سنة؟ السجن دا بالنسبة لك عدد سنين بتقولها، مش بتبُص السنين دي هتعمل إيه في الناس المرتبطة بحكمك، بتبص إنك تبيِّن إن القانون قوي، القانون دا مش ربنا، واللي حَطُّه مش ربنا، واللي بيحكم بيه مش ربنا، واللي بينفِّذه مش ربنا.
يظهر أفرادٌ من أمنِ المحكمة يتحركون ناحية عزت، الذي يقف بنفس وجهه الجامد ينظر لها دون تغييرٍ في الملامح متجاهلاً كُلَّ ما قالته له، بينما هم يتقدمون ناحيتها وهي تستكمل رافعة يدًا واحدة تجاه السماء.
- إبقى لما تقابله، قولُّه ضميري كان مرتاح، قولُّه كنت بحقق عدلك، قولُّه يا رب إنت اللي قلت احكم عليه عشر سنين.
يقاطعهما فردٌ من الأمن:
- يلا يا ست من هنا.
ويسحبها من يدها بينما يتقدَّم فردُ أمنٍ آخر.
- اتفضل يا سيادة المستشار.
بينما هي تردد بصوت خافت باكية:
- حسبي الله ونعمة الوكيل.
يركب عزت السيارة دون يظهر عليه أي تأثير، رجال الأمن توقعوا ذلك، الجميع يعلم مَن هو، وكم هو قوي ولا يتأثر بكل هذا الهراء، يقود السيارة كعادته في هدوءٍ، خارجًا من ساحة المحكمة متوجهًا إلى منزله كالعادة، لم يفكر في أيٍّ مما قالته، لن يترك ذلك العنكبوت يسير في عقله تاركًا خيوط التساؤل تتعقد وتصنع شبكة ليلتصق بها أفكاره وتنتهي في تلك المتاهة، عزت يعلم أن الجدل أو النقاش وفرضيات الحق والفضيلة هي مصيدة للعقل، تتركه يلهث وراء تلك الثوابت المطَّاطة، كل ما يمكنك أن تفعله هو أن تضع لغمًا صغيرًا على باب التساؤل، اسمه الإنكار.
لا.. أنا دائمًا على حقٍّ وهم المغرضون، مهما قالوا وقالوا، مهما كانت الإثباتات والبراهين، هم مغرضون، بالطبع تحتاج إلى مبدأ قوي لترتكز عليه أساسات هذا البناء الذي تفترض أنه لن يُخترَق، لكي يحتمل انفجار اللغم على بابه عند ظهور أيٍّ من تلك الشكوك أو التساؤلات، لكن على جانبٍ آخر، يعزلك عن حقيقة الأمر، قد تكون مخطئًا وتستكمل حياتك كلها على كل ما هو خاطئٌ، لكن مَن مِنَّا لا يعيش على خدعة، لا يعلمها إلى عندما تتحول الوسادة القطنية إلى حجرية.
يصل إلى المنزل، ويصعد كعادته، نفس الأريكة، نفس المنضدة، نفس الكأس، تلك المرة مع ضيفه الثقيل؛
«لماذا».. التي لا نهاية لها.

***

- يعني فيه أمل يا أستاذ كمال؟

تنظر له شيماء في حيرة، تزيد من حيرته الداخلية، هل يقول لها إن الأمل موجود ويعلقها به؟ ذلك الأمل الذي يموت داخله كلما التقت عيناه بوجه عزت، أم ينفي الأمل ويقتلها معنويًّا حتى إذا تلقت الصدمة لا تنهار كليًّا، أم يحاول أن يقف في المنتصف ليزيد حيرتها، الثلاثة سوف يقتلونها: الأمل سوف يقتلها مستقبلاً، اليأس سيقتلها الآن، والحيرة ستأكل منها قطعةً قطعةً ثم ترميها إلى اليأس الفوري، إذًا، لا أحدَ غيره يحل كل شيء.

- ربنا كبير، وأملنا فيه هو وحده، مهما كانت القضية سهلة أو صعبة، ربنا قادر يحل كل حاجة يا شيماء.

قبل أن يبتلعها التساؤل أو أي شيء، يمسك يدها ويبتسم ابتسامة أملٍ خفيفة، لتنتقل إلى وجهها، وعندما تضيء وجهها الجميل يعود لقلب كمال شيءٌ من الحزن.

حتى إن نجحت وحصلت لها على البراءة، فتلك القصة سوف تبقى نقطة سوداء تُغيِّر حياة شيماء للأبد، بغضِّ النظر عن أن أهل المجني عليه قد يطاردونها وقد يأخذون بالثأر منها، القضية قد تنتهي وتظل الرواية.

- المهم إنتي عاملة إيه في الحجز؟

- الحمد لله، الناس كلها كويسة معايا.

- طيب كويس، هجيلك تاني قبل الجلسة.

- تمام، وأنا مستنية حضرتك.

تقف وتتجه ناحية العسكري الواقف بجانب باب الغرفة، الذي يتجه بها إلى الزنزانة.

- الأمل، أكبر قاتل في تاريخ البشرية.

ينظر كمال خلفه ليجد رؤوف مأمور القسم..

- إزِّيّ حضرتك يا افندم؟

- الحمد لله.

- لسه شايف إن مفيش أمل.

يبتسم رؤوف في هدوءٍ:

- أنا حضرت الجلسة الافتتاحية لمعلوماتك.

ثم يسكت للحظة:

- الأمانة أنا كنت أعتقد إنك هتخسرها، لكن بالوضع اللي أنا شُفته، إنت خسرتها بالفعل، آسف لو صريح معاك، بس أنا متابع التحقيقات.

ينظر له كمال بشيء من تحدٍّ:

- لا لسه، لما الحكم يتقال، وقتها أبقى خسرت.

يمد رؤوف يده ناحيته ليسلم عليه:

- أقابلك هناك يا أستاذ كمال.

يمسك كمال يده وهو يهز رأسه، ثم يتركه ويخرج من المكتب ثم من القسم، يقف على بوابته ويأخذ نفسًا عميقًا من ضوضاء المدينة، لماذا يشعر الجميع باليأس من القضية، كمال يتحدَّى الناس بالظاهر، أما الباطن فالأمل يموت، الناس تُحاصِرُه بكلامٍ عن الفشل، وعزت يضع سورًا حول

كمال، وكمال بدأ الشعور بالملل، يخاف أن تنتهى تسلية عزت به، ثم يكسره كالدمية، عزت في المحكمة غير من يقابله في المقهى، ولا يوجد دليلٌ قَاطعٌ ليغيِّر وِجهة نظره، القضية خاسرة غير من أملٍ في المجهول، فليكن.. لنحاول المحاولة الأخيرة.
***
كان كمال ينظر له وهو على مدخل المقهى، يحدق فيه أو يتأمله، كيف يمكن لبعض البشر أن يصنعوا لنفسهم تلك الهالة، كيف يمكن لشخص أن يكون مُميَّزًا لتلك الدرجة في مثل هذا العالم الذي لا يتميز البشر فيه إلا بحجم الثروة، حتى الدخان الذي يخرج من فمه، يخرج بهدوءٍ ونظامٍ، ليس مبعثرًا كباقي مدمني الشيشة والسجائر، يدخل من الباب القهوة، يجلس هو في نفس المكان، أمامه فنجان من القهوة كان ارتشف منه رشفه واحدة، ويمسك تلك المرة بكتابٍ يقرأ فيه.
- مساء الخير سيادة المستشار.
ينظر له لثانية، ثم يشير له بالجلوس، فيجلس كمال، ينتظر دقيقتين قبل أن يضع عزت الكتاب على طرف المنضدة، كتاب يبدو أنه قديم من غلافه العتيق.
- شكله مش كتاب قانوني.
يأخذ عزت رشفة من فنجان القهوة وينظر له.
- لا دا كتاب في الفلسفة.
ينعقد حاجبا كمال بابتسامة.
- غريبة يا سيادة المستشار، على كده كتاب مسلي؟
ينظر إلى الكتاب للحظة ثم يعيد نظره إلى كمال.
- لا خالص، عبارة عن هواجس زَيها زَي كتب علم النفس، كلها مبنية على غير أساس، وكل اللي بيكتبوا في العلوم دي بيخالفوا بعض وبيغيروا نظريات بعض.
يخرج الكثير من الدخان من حلقه ثم يستكمل:
- المشاعر البشرية دي تجربة آلاف السنين واللي إحنا فيه دا عبارة عن تراكمات لمشاعر وتجارب بشَر مُختلفة جزء منها انسجم مع بعضه وجزء نشَز، عامل زي لما تخلط ألوان مع بعض وتفضل ترسم كل شوية بيها، كل شوية هتشكِّل مجموعة الوان مختلفة وكل درجاتها، كل واحد حيشوف حاجة مختلفة عن التاني وحيعبر عنها بطريقة مختلفة عن التاني، محدش حيقدر يعرف يقول حاجة تعبر عن اللوحة بالكامل، فكل اللي بيتقال دا أنا باعتبره رأي شخصي من حد قدر يشوف جزء من الصورة.
ينظر له كمال رافعًا حاجبه:
- والقانون، مش أفكاره عبارة عن لوحة تانية مرسومة بنفس الطريقة.
يمسك عزت فنجان القهوة ويأخذ منه رشفة وهو ينظر للكتاب غير مبالٍ لرأي كمال.
- القانون يستخدم الألوان الأساسية، المشاعر الأساسية للبشر دون دخول في تعقيداتها، يعني إذا كانت اللوحة اللي قصادي فيها كل درجات البرتقالي والنبيتي مثلاً، فحُكمي إن اللوحة دي حمرا، دا اللون الأساسي، ماينفعش نستخدم غيره، مفيش فاتح مفيش غامق، لون واحد له اسم واحد من كلمة واحدة، تفصيل أكتر من كده يبقى حكم جدلي.
ثم يلتفت لكمال وينظر في بؤبؤي عينيه:

- زي لما قضية تبقى واقفة على شهادة واحد بس شاف بعينه الحادثة وكل الدلائل بتقول إنه كان موجود وقتها، الشاهد موجود يبقى فيه قضية، الشاهد مش موجود يبقى خلاص، القضية منتهية.
يسكت كمال للحظاتٍ، كان متوقعًا أن عزت يعرف أنه لن يجد الشاهد، لا.. بل كان يعرف أن عزت يُسايره عندما قرَّر أن يؤجل القضية، ولكنه كان صعب عليه أن يواجه نفسه بمخاوفه الدفينة.

- طيب حضرتك بتقراه ليه مادام عارف إن كل دي هواجس؟
- ممكن تقول تسلية، محاولة مني لفهم الطبيعة البشرية بشكل أعمق.
ثم ينظر إلى ساعته للحظاتٍ قبل أن يستكمل:
- بس في الغالب كل الكلام بينتهي بقاعدة إن اللي بيحرك الإنسان فقط الحاجة، كل المشاعر من أول الأمومة والأبوة وصولاً إلى حب الوطن كلها عبارة عن حاجة، مفيش حاجة اسمها حب والكلام الفارغ دا، دا كلام بيخلُّوا الناس تردِّده عشان كان زمان بيدي أمل، ودلوقتي بيجيب فلوس، بس مفيش أكتر من كدا، لكن الإنسان بيحتاج فبيتحرك.
كمال ينصت ثم يعلِّق بنظرة اعتراضًا.
- دي نظرة تشاؤمية، ودا كلام مُطلَق ولكنه غير سليم.
ينظر له عزت بهدوء يشوبه التحدي:
- إثبت العكس.
يبتسم كمال بهدوءٍ:
- مش محتاج أثبت العكس، لأن الدين نفسه أثبته، وجود إله بينسف فكرة الحاجة دي أصلاً.
يرد عزت بابتسامة:
- اتفضل اشرحلي بتفصيل..
يسحب كمال نفسًا عميقًا ثم يقول:
- وايه الفائدة إني أشرحلك وانت ثوابتك مابتتغيرش؟
ينعقد حاجبا عزت نصف مللي متر:
- قصدك إيه؟
ينظر له كمال بهدوءٍ.
- أنا ممكن أشرحلك شرح وافي عن العلاقة الطردية بين الإنسانية والعدل، وممكن أثبت لحضرتك إن الغلبانة اللي بتشوف أسود أيام حياتها بسبب واحد كان عايزها لقّة أحَق بالبراءة من غير محاكمة أساسًا، بس حضرتك مش هتقتنع، فأنا مش هشرح حاجة.
النصف مللي يصبح نصف سنتيمتر.
- أُمَّال إنت جاي ليه؟
- كان عندي أمل أثبِت لحضرتك حاجة، بس واضح إنه مش موجود.
يقف كمال وينظر لعزت الذي لم تهز قنبلة الدهشة داخله شيئًا منه إلا حاجبه.
- أنا بشكر حضرتك على وقتك وتعبك معايا، أشوف حضرتك على خير في المحكمة.
ويمشي كمال خارجًا من القهوة تاركًا عزت في ثبات الذهول والغضب.
غضب عزت لعدة أسباب، أولاً لأنه أصابه في هيبته بخروجه عن سيطرته التي كانت تكمن في إدارة الحوار الذي كان ينتصر في نهايته دائمًا.

ثانيًا أن عزت خسر تسليته الجديدة في وسط هذا الملل الذي يعيشه.
يقف عزت من مقعده وهو ينظر في غضبٍ مصحوب بذهولٍ على كمال الذي يسير مبتعدًا، وفي رأسه يصعد الدم في اشتعال على عدم احترام كمال له ولسيادته عليه، وهو يردِّد:
- إزاي يعمل كده معايا، إزاي؟

الفصل الثامن
القسوة والوحش

الجميع يحن إلى الماضي، ولكن لا أحد يريد العودة إليه
عزت وهو صغير كان يعشق مكتب والده، كان الكسر الوحيد للقواعد الذي سمح لنفسه بفعله هو الدخول خلسة إلى غرفة المكتب، ينظر إلى مكتب الفخم والمكتبة الضخمة التي تحيطها الرفوف التي تملأ جدران الغرفة الأربعة، والكتب مرصوصة جانبًا إلى جنبٍ بنظام كالجنود في طابور الجيش، إلى جانب المقتنيات التي تضمها الغرفة من لوحات ومقتنيات والده، وأسلحته المعلَّقة، كانت الغرفة كالمتحف الصغير، كانت هناك درفة في المكتبة تضم مقتنيات والده الخاصة جدًّا، بها أدواته الشخصية مثل مطرقته المفضلة، رداؤه، بندقية صيده، وزوج من الكلابشات كان والده قد أخذهم كتذكارٍ من واحدة من قضاياه.
في مرة من المرات قرَّرَ وهو طفلٌ صغيرٌ أن يكسر كل القواعد ويفتح مكتبة أبيه ليمسك الكلابشات ويقيسهم على يديه ويفتحهم بالمفتاح الخاص بهم، وبعد أن ينتهي يضعهم مكانهم بهدوء لا يستطيع أحد أن يعرف إن انتهك أكبر حرمات البيت، باللعب بمقتنيات أبيه سِرًّا، كان كلما دخل غرفة مكتب والده كان ينظر لهم بسرورٍ، كانوا يذكرونه باللحظات السعيدة الذي كسر بها القواعد الصماء.
وبعد مرور كل تلك السنين، أصبح ينظر لهم في حيرةٍ، كسر المحظور واختراقه كان يسبِّب له السعادة، فلماذا الآن أصبح يُسبِّب له الحيرة؟
فتح الباب لمحامي قضية من قضاياه، وهو شيءٌ لم يفعله من قبل لأي أحدٍ، كان محظورًا على أحدٍ الاقتراب منه أو التحدُّث له، خاصةً أنه من فئة مصرح لها بذلك، وجعله دميته الشخصية التي يتسلى عليها، يستعرض كل قواها وعلمه الذي لم يستعرضهما أمام أحدٍ من قبل، حتى وقع في حب تلك اللعبة، كان أمام منافسٍ ضَعيفٍ هزيل، يداعب وجهه بقبضتيه كمُلاكِم من الوزن الثقيل أمام ناشئ في وزن الريشة، وعندما كان يفكر متى يقوم بالضربة القاضية، يضرب الجرس، ويفاجأ أن المنافس والحكم والمشاهدين خارج الحلبة غادروا، دون أن يعلنوه فائزًا كالعادة، فبقي واقفًا وحده في الحلبة معلَّقًا للأبد في انتظار النتيجة، يلكم بقبضتيه الهواء في عجزٍ، منتظرًا حكمًا لن يأتي.
هل تعلم كيف تدمِّر حياتك اليومية في خطواتٍ بسيطة، هناك مصيدة لطيفة جدًّا يمكنك القيام بها لعقلك،

1 – اعتقد أن ذكاءك أعلى من متوسط ذكاء الآخرين.
2 – ابدأ في تحليل الظروف المحيطة بك والأشخاص المحيطين تحليلاً قويًّا مُفصَّلاً.
3 – افعل ذلك في وقت الفراغ وعوِّد نفسك على أن يحدث تلقائيًّا.
4 – درِّب نفسك على ذلك بشكلٍ مُتكرِّرٍ.

ونتمنى لك حياة سعيدة مع وحش ال Overthinking
في الغالب يقوم العقل بالتفكير التحليلي للأشخاص من حولك بصورة عادية، لكن مع زيادة التركيز مع أفعالهم ووضع افتراضاتٍ لماذا سيحدث سواء مع الأشخاص أو مع البيئة المحيطة بك، يبدأ العقل في عمل هذا بصورة آليةٍ، يجعل المخ يبدأ في عمل تلك الاستنتاجات طالما كانت عنده العناصر التي تشكِّل بيئةً للتحليل، لتعتقد أنك فيلسوف ومتأمِّلٌ، لتدفع عقلك إلى العمل بشكل أكبر

وبمجهود أعلى لوجود عنصر الوقت متوفرًا الذي يا حبذا لو مع قليلٍ من الملل، إلى أن يبدأ عقلك في رسم منطقٍ لطيران الذباب وبناء فرضيات لتفسير سلوك طيرانها، وبالطبع تحدث لك مشاكل في حياتك، فيبدأ عقلك المُدرَّب في تقديم حلولٍ لا نهائية بناًء على ما دربته المنطقي منها وغير المنطقي، فإذا كنت تمر بأزمة مالية، فقد يبدأ التحليل بأن تلتحق بعملٍ إضافيٍّ، وينتهي بأن تجد نفسَكَ تشاهد على اليوتيوب فيديو لكيفية إطفاء جهاز التنبيه الخاص بالبنوك.
فمِنَ الأفضل أن تترك عقلك سليمًا دون استعمالٍ، من أجل نومٍ هادئ وحياةٍ سعيدةٍ، هذا ما كان يفعله عزت في حياته، يعيش وحيدًا بعيدًا عن زوجة أو ابن، في المحكمة يدار كل شيء حسب القواعد، كل شيء حوله متاحٌ، حتى عندما يبدأ التفكير في حاجته الجنسية، مكالمة هاتفيه تنهي كل أفكاره، لكن حواره مع كمال جعله يبني تلك الافتراضات، جعله يعتقد أن كمال تحت السيطرة وأن كل ما سيفعله هو يعلمه، وجد شيئًا للتسلية، فأر يصنع له قفصًا زُجاجيًّا كالمتاهة، لا يستطيع الخروج منها وليس له سوى اتباع القواعد والقوانين التي وضعها له داخل تلك المصيدة، وكل يوم يلعب ويستمتع بمشاهدته يحاول الخروج من تلك المصيدة بلا أملٍ، فالفأر إمكانيته محدودة ولن يصنع أي استثناء والقفص مُحكَمٌ ولا يستطيع الفرار، حتى استيقظ يومًا ما ووجد الفأر يقف على النافذة ويخرج له لسانه ثم يختفي للأبد.
رد فعل كمال غير المُبرَّر والمفاجئ جعله يسقط في بحر الافتراضات والأفكار، وهو كان قد نسي منذ أعوام ما معنى التفكير الزائد، قد نسي عمومًا معنى أن يكون إنسانًا عاديًّا، يتذوق عزت شيئًا من إنسانية فقدها منذ وقت طويل، شيء أرغم نفسه على تركه من سنوات، طعم الحيرة، ذلك الشعور الذي يتغذى عليه كامل البشر، أن تأخذك قضية لتصبح محور تفكيرك وتظل تتساءل ذلك السؤال المخيف الذي كان وسيكون سببَ هلاكِ أغلَبِ البشرية، كلمة واحدة دمرت في العالم أكثر مما تسبب هتلر في تدميره، الكلمة التي جعلت الشيطان يقضي حياته في ندم: «لماذا»؟؟

***

- ليه؟
- من غير ليه، وماتسألنيش يا ريت.
- يعني كده القضية انتهت يا كمال؟
ينظر كمال من نافذة المكتب في شرود، يتذكر حوار الأمس، نظرة عزت وهو يرحل.
- لا ما انتهتش، لازم هنكمِّل للنهاية.
يقولها بطريقة درامية أشبه بأفلام الخمسينيات من هذا العصر، يقولها وليس في قلبه سوى نصف جرام إيمان بأن الأمل موجود، أنا هناك معجزة قد تنزل من السماء لتغير من المصير المعتم الذي تتجه إليه القضية.
- طيب فكر في حل جديد، في مخرج تاني، دوَّر على الكشك وصاحبه في أي حتة.
ينظر كمال إلى محمود في شيءٍ من انفعالٍ.
- إنت يا ابني مش معايا في القضية، إنت شايف كل حاجة على إيدك.
ينظر له محمود.
- خلاص، ارجع زور المستشار عزت تاني.
- وهقوله إيه؟ أنا عيِّل.

ينظر له محمود في حيرةٍ، لا يفكر، فقدان الأمل جعل عقله يقف عن التفكير، فقط يقول أول ما يلقيه عقله للسانه ، لا يريد حتى أن يبحث عن حلٍّ لتلك الهزيمة.
يرن هاتف كمال مقاطعًا التفكير الغارقين فيه، يمسك كمال الهاتف وينظر إليه وهو يتنفس بعمق، مكالمة في وقت غريب.
- أستاذة هبة..
- أهلاً أستاذ كمال، إيه أخبار القضية؟
- شغالين أهو في المكتب، ادعيلنا.
- طيب أنا عايزة أقابل حضرتك، تحب آجي المكتب؟
- لا خلينا نتقابل بره في حتة تانية، عشان حتى نعرف نشرب حاجة عدلة واحنا بنتكلم.
- تمام.
***
بعد ثلاث ساعات في أحد مقاهي عباس العقاد.
- إيه أخبار القضية بعد الجلسة الأولى؟
يسكت كمال لثوانٍ، كان قد حضَّر إجابة نموذجية لكل الأسئلة المُحتمَلة، ولكنها إجاباتٌ عائمة وليست قاطعة كحال القضية، ولكن كلما همَّ بالإجابة يستوقفه ضميره لثوانٍ راجيًا كمال في إعادة التفكير قبل الجواب، راجيًا إياه أن يقولَ ما في صدره ليخلِّص ضميره، بالطبع في قضيةٍ أخرى كان ليدسَّ المُخدِّر الكُلِّي لضميره حتى لا يتحرك منه شعرة، لكن تلك القضية اختلفت فيها الأغراض والمشاعر، مما حثَّ الضمير على الاستيقاظ وقطع كفنه والخروج كالمومياء الملقى بتاريخ تخرجه في قبر الصدق، ليرفع يده لكمال، مطالبًا بشيءٍ من حقيقة لا خدعة، تلاحظ هبة من نظرات عينيه التي غرقت في التفكير، أن هناك معركة تدور داخله، فتستكمل قبل أن يتكلم:
- أنا عارفة إنها صعبة، بس عايز أعرف لأي درجة؟
يقرر كمال الرد دون مراجعات:
- القضية بقت أصعب من الأول، ونية المستشار عزت الدويني واضحة.
- يعني خسرت؟
تقرر هي أن تكون قاطعة، بينما لا يريد هو ذلك.
- لا لسه ماخسرتش لحد دلوقتي، واحنا شغالين على الأساس دا.
تنظر من زجاج المقهى على الشارع الرئيسي، ثم تعيد النظر له.
- كنت عايز أسألك سؤال يا أستاذ كمال، بس شخصي شوية.
يرتفع حاجبه لثوانٍ ويهبط مرة أخرى.
- اتفضلي.
- هي القضية دي مُهِمة ليك كتحدي، ولَّا مُهِمّة عشان في واحدة رقبتها في إيدك؟
ينظر لها ثم ينظر إلى فنجان القهوة الذي يضعه أمامه جرسون المقهى.
- للأمانة، الاتنين.
- يهمني ترتيب الأوليات.
ينظر لها مرة أخرى:
- بمعنى؟

- شوف، إنت لو همك شيماء الأول وبعديها القضية، فإنت إنسان، لو خسرت القضية هتبقى خسارة وحيدة، لكن إنسانيتك وتعاطفك مع مظلوم بيزودوا من قيمتك كإنسان قُصاد نفسك وبعديها قُدَّام الناس، أما لو بتدوَّر على القضية الأول، فخسارتك مضاعفة، إنت كنت زي التاجر الجشع اللي عايز يكسب كتير على حساب حد بيراهن عليه، لو خسر هتبقى الخسارة من كل ناحية.
وتسكت للحظات لترتشف القهوة.
- وأنا شايفة إنها بالنسبة لك سبوبة، قضية كبيرة إنت مستني تلِمّ غنايمها لو كسبت، إنت مش خسران حاجة، ممكن دلوقتي تستخبي ورا أسباب الفشل زي الشهود وعزت وكل الكلام دا، ولما تفشل القضية وشيماء تدمَّر، هتطلع تقول كلمتين آخرك عن أسباب الفشل وتعنُّت القضاء لو عرفت، وخلصت القضية بالنسبة ليك، أما بالنسبة لها فحياتها اتدمرت إلى الأبد، شخص بيموت قُدَّامك، وانت كل اللي هَمَّك إيه اللي هتكسبه من ورا جنازته.
ينظر لها بحِدَّة:
- إنتي شايفة الموضوع من منظور غير واقعي، كلام جميل من بتاع الأدب والإعلام، لكن الواقع يا أستاذة هبة إن أنا محامي، شغلي بيعتمد على قضايا زي دي، لو كل واحد وكِّلني وتعاطفت معاه أنا هدفع ثلاثة أربع دخلي الشخصي على المناديل في العياط جنب القضايا الخسرانة ومشاعر الموكلين اللي في منهم جاني بجد وعايز يطلع براءة بالتحايل على القانون، أنا محامي يا أستاذة هبة شُغلي بيخليني أتعامل مع البشر في أسوأ حالاتهم، الخوف والجشع والكراهية، عايزِنّي أتعاطف مع كل قضية أترافع فيها إزاي أساسًا؟
تنظر له نظرة واثقة:
- يبقى إنت فرقت إيه عن عزت الدويني؟
تكاد عيناه تنظران إلى الفنجان إلى أن سمع الجملة لينظر إليها في دهشة لا تخلو من الحدة:
- ازاي يعني؟
- إنت مشكلتك مع عزت الدويني إنه بيطبق القانون زي ما هو، لا مشاعر لا تعاطف، وانت كمحامي بتقول إنك مش بتتعاطف مع الناس اللي بتتعامل معاها لأن دا شغل ومافيهوش مشاعر، يبقى اللي بينك وبين عزت القانون، لو حكم بالإعدام يبقى انت فاشل، لو حكَم بالبراءة يبقى انت ناجح، فقط اللي بينه وبينك قواعد زي لعبة الشطرنج، وانت واضح إنك فقدت أغلب جيشك.
ينظر لها في حيرة قتلت حدته، ليسكت ويضع عينيه في فنجانه في ألمٍ:
- مش بالصورة دي يا هبة، كلامك فيه جزء كبير من حقيقة لكنه أعمق وأكثر تعقيدًا من كده.
- بص يا كمال بيه، أنا بكلمك بعيد عن الصحافة والجمعية، أنا بكلمك كإنسانة شايفة إنسانة تانية بتنهار وانت في إيدك تساعدها، أنا عارفة إن الموضوع صعب، والأدلة مش كاملة، والقاضي قاسي، لكن إنت لو تعامَلت مع شيماء إنها أختك، وإن هدفك الأساسي إنها تطلع براءة فُرصتها هي هتكبر، وانت هتقدر تكسب جزء من إنسانية الوظيفة اللي إنت فيها، اللي هي جزء من إنسانيتك.
ينظر لها فتستكمل في هدوء:
- لو لاعبته بالقواعد هيغلبك، أغلبه بالسلاح اللي مش عنده.
وتسكت ثانية ثم تقول:
- المشاعر.

يسكت للحظة، يدير الكلمات في رأسه، يحاول أن يفكر لعلَّ هذا هو الحل، يضع الفكرة في ركن عقله، ويعيد النظر لهبة:

- إن شاء الله خير.
- أتمنى ذلك، وأملي فيك كبير.
- ربنا يسهل.

يجلسان قليلاً قبل أن يودِّعها ويشكرها على نصيحتها، يشكرها أنها أيقظته في وقتٍ كان يحتاج للأمل، والأهم للإيمان بقضيته، لعلَّ الإيمان يكون طريقَنا لنهاية سعيدة.

الفصل التاسع
إنسانية مفقودة

القتل مثل أي شهوة، لذة ثم ندم، فحاول أن تطيل اللذة لتجد ما تندم عليه
يقلِّب عزت أوراق القضية مرة أخرى؛ لكي يعيد تذكُّر الأحداث، كل الملابسات والأدلة والإجراءات.. شهادة الشهود والمارة، تحقيقات النيابة، هناك قدرٌ جيدٌ من تضارُب الأقوال، لا توجد شهادة لم تُنفَ بأخرى، وأمام كل شاهد دليلٌ ينفي شهادته، كل من الأطراف جاء بشهوده وكان قد سطر لهم شهادتهم، في الجلسة القادمة سيتحدث الشهود، ولن يضيفوا شيئًا جديدًا، القضية كلها متغيرات إلا من ثابتٍ واحدٍ:
هو تحرَّش بها وهي قتلته بطريقة وحشية، عزت شخصيًّا لا يمانع من إقرار قانونٍ خاصٍ بإعدام المتحرشين، أو إن تم قتلهم توضع الجانية في صفة دفاع عن نفس، لكن حتى يحدث هذا رسميًّا، هي قتلَتْهُ متعمدةً، بصورة تجريدية، في قانون الدويني هي مجرمة وانتهت القضية، كل ما سيفعله كمال هو محاولة تجميع أدلة وشهادات صغيرة، ليحاول أن يبني بها قضيته، لكن لا يوجد دليل دامغ واحد معه، ولا شهادة واحدة قوية، بينما يقلب عزت في تحقيقات النيابة، تقع عيناه على جملة تستوقفه وكانت تحمل المتهمة أداة الجريمة في حقيبة كتفها الصغيرة، يبتسم لثانيتين قبل ان تختفي الابتسامة..
كانت الابتسامة لفكرة طريفة، هي لحقائب نساء هذا العصر التي تمتلئ إلى آخرها بأدوات التجميل والمرايات والعطور، تخيَّل في منتصف كل هذا سكين مطبخ كبير، ثم اختفت لفكرة أخرى: ما الذي يجعل فتاة في شبابها تحمل تلك السكين، وما الذي دفعها لاستعماله مع هذا الشخص؟ من التحقيقات هي ليست هذا النوع السوابق بينما هو يسير مُخدَّر ويعاني من هوَسٍ جِنسيٍّ كما هو مُثبَت بأوراق رسمية، هل يمكن أن يراعي هذا في الحكم على القضية، لأقصى الخيال أنها هي الشريرة وهو الطيب، هل هي بالسذاجة التي تجعلها تقتله في منتصف الشارع ومنتصف النهار بحجة التحرش، ثم يأتي في رأسه صورة زوجة سمير محروس..
ما الذي سيعود عليه بتغليظ الحكم، ما الفارق في حكم ب 15 عام و25 عام، وماذا سيفيد المجتمع ابتعاد شخص كل تلك المدة إذا كان ليس لديه سجِلّ إجرامي، أو أنه شخص عادي أخطأ في لحظة غياب عقل، يرفع عينيه عن الأوراق لينظر إلى محيط الغرفة، يثبت عينيه لدقيقة قبل أن يغمضهما، لتسكت كل الأصوات في عقله، ثم يطوي الملف بيده ويفتح عينيه، وكأن كل هذا الحوار لم يكن، ولكنه في قرارة نفسه كان قد استقر على قرار، حتى لا يدع للحوار داخله مكانًا، حتى لا يدع لجنون هذا العالم مدخلاً إلى عقله، يرفع رأسه إلى أعلى الغرفة قبل أن يتمتم:
- براءة أو إعدام..
ويغمض عينيه.
ليسمع صوت طرقتين على باب غرفته، ثم باب الغرفة يتحرك ليطل رامز بدير ويدخل إلى الغرفة.
- صباح الخير يا سيادة المستشار.
- صباح النور.
يجلس على الكرسي أمام مكتب عزت، ويفرك عينيه من شدة الإرهاق، فيتحدث عزت:

- إيه يا رامز بيه، شكلك كنت سهران إمبارح سهرة كويسة.
يبتسم رامز وينظر له:
- جدًّا سعادتك، كانت سهرة هايلة.
- طيب مش عيب ماتكلمش أخوك.
- يا ريت كنت هحتاجك، دي قضية صعبة أوي.
- قضية إيه؟
تتغير النظرة والابتسامة على وجه رامز، تشقها نظرة ضيق غير عادية.
- ما أعرفش إيه اللي بيحصل في الناس، بس الواضح إن الجنون بينتشر بينهم زي الطاعون، والأفلام الأجنبي عملت لهم خلل عقلي، الناس قلبها مات دي عرفناها، ضميرها مات من بدري، لكن مخها يبوظ بالشكل دا، لا كده الحدود اتدمرت.
يتكلم وهو يلوح مما يدل على انزعاجٍ شديدٍ، يشد انتباه عزت بشدة ليعتدل ويميل ناحية المكتب وهو ينظر لرامز باهتمام.
- في إيه بس يا رامز بيه؟
- قضية جديدة كنت بتابع تحقيقات النيابة أول بأول، ماكانتش مفهومة، بس إمبارح المباحث فهمت القصة، وقابلني ظابط حكالي نتيجة التحقيقات إيه، والقضية الإعلام لحد دلوقتي ماعرفش حاجة عنها، بس أكيد هيعرف وأنا بكلمك دلوقتي، واتحولت للأسف للمحكمة وأنا اللي هحكم فيها.
يسكت لثوانٍ ثم يرتفع حاجبه ومظاهر الضيق تزداد كلما استرجع في عقله القضية.
- دكتورة اسمها نيفين، سجلها ممتاز وأخلاقها يشيد بها الجميع، كانت متجوزة محاسب اسمه أحمد، فضلوا فترة متجوزين والظاهر إنها ماكانتش بتخلف وهما متجوزين على هذا الأساس، هي من أسرة كبيرة وأكبر منه بسنتين وهو على أدّ حاله، قصة عادية، بس.. فيتجوز عليها واحدة تانية، ويخلف بس تقريبًا مراته دي يعرفها قابلها، وتقريبًا يضحك عليها في فلوسها ويعيش بيها هو ومراته وياخد عربيتها، طبيعي لحد دلوقتي، المهم تحصل المعجزة ونيفين تحمل، وتحصل خناقة ما بينهم على حسب كلام أهلها يضربها في وجود مراته التانية ويسقط الجنين وياخد معاه رحم نيفين، وتقعد شوية تتعالج نفسيًّا، وبعدين تفكر في الانتقام.
يصمت لثوانٍ ويبتلع ريقه بصعوبة:
- بطريقة ما خدرت الاتنين، ولما صحيوا لقوا نفسهم متكتفين في كراسي بسلك في أوضة النوم، اللي شبابكها كانت مقفولة ومتلزق عليها مشمع تقريبًا عشان يعزل الصوت، ومتوصلُّهم جلوكوز، والتحليل بيقول إنهم كانوا واخدين عقار فيه نسبة مواد منبِّهة عالية ففِضلوا صاحيين لمدة يومين تقريبًا، بيشوفوا ابنهم الوحيد اللي ماكمِّلش سنتين بيلف في الأوضة وبيعيط من الجوع والعطش ويقف قُدَّامهم ويحاول يفكهم أو يتكلم معاهم، طبعًا من غير أمل، طفل سنتين، ويموت قُدَّامهم في النهاية، والأم كانت ماتت قبله كنوع من الرحمة من سكتة قلبية، لكن أهل أحمد يكسروا الباب وهو على أول الموت ويلحقوه، بس طبعًا بعد ما جاله خلل في عقله وانتهى كإنسان وهو بيشوف الاتنين بيموتوا قدامه.
يسكت ويكتم دمعة كادت أن تصل إلى طرف عينه.
- نيفين محجوزة دلوقتي، وبتدعي الجنون أو اتجننت، مش عارف، ماكانش فيه دليل في الأول عليها، لكن المباحث جابت دليل اشتراكها، وكان أسوأ حاجة في القضية كلها.

عزت المذهول، يرد بصوتٍ خافتٍ:
- إيه هو؟
ينظر له رامز وهو يعض على شفتيه:
- كانت مخبية كاميرا عشان تتفرج عليهم، وال Sim Card اللي كان فيها باسمها، اتفرجت على كامل المشهد والواد بيموت وأبوه وأمه بيتعذبوا.
عقل عزت ينبض من فرط الانفعال، حاول أن يجسد المشهد، ولكن قلبه أوقف عقله.
يستكمل رامز ناظرًا إليه:
- المشكلة إنها هتطلع براءة.
- عشان ادعاء الجنون؟
- طبيعي، أهلها بيملكوا مستشفيات، ويعرفوا كل دكتور في البلد، التقرير هيطلع زي ما هُمَّا عايزين، حتى لو من الحكومة، القضية منتهية.
ثم يصمت قليلاً ويقول وهو ينظر لعزت في حزن:
- من القضايا النادرة اللي أي حد يحكم فيها حكم عادل، عدا القضاء، القوانين اللي معموله عشان تحمي الأخيار، أصبحت حصنًا للأشرار.
يهم عزت في الرد عليه بأن تلك حالات فردية، كان يريد أن يرد ببرودٍ كعادته ردًّا منطقيًّا وقاطعًا، لكنه قرر أن يصمت، وأن يترك لقُدسيَّة الموت المساحة، والشيء الأصعب والأسوأ، أنه شعر بالحزن، أنه على الأقل شعر بشيء، الحزن أو الفرح لا يهم، لكنه يشعر.. تلك كارثة أكبر من القضية، بدأ يتساءل كالآدميين: ماذا حدث للناس، ما هذا الجنون، من أين أتى هؤلاء البشر بكل تلك المشاعر الوحشية والجنون، يعيد تخيُّل المشهد، ماذا كان فعل الأب والأم وابنهما ينظر إلى عيونهما طالبًا الحياة، وكيف كانت عيونهما تنظر له، كيف يمكن لأحدٍ مشاهدة طفل يبدأ الحياة، ينتهي ببرودٍ، الدم يرتفع إلى رأسه.
لا..لن يفكر في هذا الجنون، لن يدع نفسه لتلك الحلقة المفرغة يدور ويدور بلا نهاية، لن يكون إنسانًا، سيقاوم لأقصى ما يستطيع، ولكنه عندما يحيطه الصمت، أصبح لا يسمع شيئًا، سوى دقات قلبه.
***
- ايوا يعني في امل يا أستاذ كمال
كان غريب والد شيماء يتصل بشكلٍ يَوميٍّ بكمال لمعرفة آخر الأخبار، ولكن مشاعر كمال المتناقضة وشكوكه انتقلت إلى صدر غريب، الذي أصبح الشعور بالخوف يزداد لديه كل يوم عن الذي قبله، فيأمل في طمأنينة في صوت كمال الحائر.
- كل حاجة في الدنيا ماشية بالأمل يا حاج غريب، ادعي بس وإن شاء الله ربنا هيكرمنا.
- يعني القاضي ممكن يحكملها من غير الواد بتاع الكشك اللي مش لاقيينه دا.
يسكت كمال للحظات قبل أن يقطع الصمت:
- ربنا يسهل، في حاجات تانية في إيدينا غير الواد بتاع الكشك بإذن الله.
يصمت غريب في يأس ثم يختم في المكالمة:
- السلام عليكم يا أستاذ كمال.
يغلق الهاتف ويسير اتجاه منزله في نفس الطريق الذي كانت تسير به ابنته في قلب الحي العاشر.

كان الأمل قد ضعف وكاد يموت في قلب غريب، بدأ يحس أن النهاية لن تكون سعيدة، وأن كمال أصبح عاجزًا ويقود القضية بلامبالاة، حتى زيارته إلى أبو القتيل التي انتهت بدراما للطف الرب لم تنتهِ بعنفٍ، كل هذا تجمَّع في رأسه الذي علي وشك الانفجار.
هل تعلم ماذا يعني أن يكون محور حياتك هو تربية طفلك الوحيد، ويكون نجاحك نجاحه، وفشلُكَ فشَلَهُ وهو العالم بالنسبة لك وأنت كذلك، ثم تكتشف أن هذا العالم الذي ربيته وامتلكته لا تستطيع حمايته أانه يعرف ذلك عن ظهر قلب، ثم تفقده للأبد؟ كل شيء انهار في لحظة ما، كل شيء..
يصعد السلم في هدوءٍ، يفتح باب الشقة ليجد زوجته تنظر له فيحيِّها بيده ويدخل إلى غرفته وصوتها في الخلفية:
- نُص ساعة والغدا يبقى جاهز.
يدخل إلى غرفته ويخلع ملابسه، ويرتدي بيجاما ويجلس على كرسي أمام سريره وينظر إلى الحائط لصورة له مع شيماء وهي صغيرة، يتذكر لحظة ولادتها، وهي في روضة الأطفال، ذكريات مصايف إسكندرية ومرسى مطروح، فرحتها بالتخرج، مشاجراتها مع أمها في رفض عريسٍ ما رشحته إحدى الجارات، يغمض عينيه وهو يتذكر حلمه بأن يراها عروسًا وأن يقف في فرحها، وأن يحمل بعد ذلك أبناءها وهم يلعبون حوله وهو جالس على نفس الكرسي.
كل هذا انهار أمام جثة متحرش ومطرقة قاضٍ، أصبح كل ما يحتل ذاكرته صورها خلف القضبان، زيارته لها تحت رقابة العسكر، دموعها ودموعه في كل لقاء، كل ذكريات الماضي وأحلام المستقبل التي كانت في رأسه، استُبْدِلَت بمأساة في دائرة مغلقة تدور في رأسه بلا نهاية، من الواضح أن أقل الأضرار هي أنه سيظل لفترة يراها خلف الأسلاك الحديدية لسنواتٍ طويلة، أقل ضَررٍ يمكن أن يحدث لا يستطيع حتى التفكير أنه سوف يحدث، كل هذا يضغط عليه.
والضغط يولِّد الدموع، ثم الانفجار.
أراح رأسه إلى الكرسي ونظر إلى السقف وأخذ نفسًا عميقًا وهو يدعو الله أملاً في الخير ويسبح له ويستغفره،
بعد عشر دقائق تطل زوجته برأسها من الباب.
- أنا حطيت الغدا، يلا.
لا يرد عليها، فتقترب منه معتقده أنه نام.
- مش حتقوم للغدا؟ غريب.. يا غريب
- ..
- غريييييييييييييييييييييييييييييييييييب
***
المقهي ليلا مرة أخرى تلك المرة يجلس عزت مع مكرم بينما يتحدث الأخير إليه:
- أنا ليه حاسس إنك هترزع البنت دي إعدام وتسيب الدنيا تضرب تقلب.
- لو قتل مع سبق الإصرار والترصد يبقى حكم الإعدام في الصورة.
- وسيادتك شايف من ورق القضية إنه سبق إصرار وترصُّد، وإن المتهمة ماكانتش في حالة دفاع عن النفس.
ينظر له عزت رافعا حاجبه:

- الجريمة في نُص الشارع في وسط النهار، مفيش أي دليل على محاولة اختطاف، أو أي تهديد لحياة المتهمة، دا غير إن المتهم ماكانش في حيازته أي سلاح أو أداة تؤدي للقتل.
يبتسم مكرم وهو يرد:
- اعتقد إن مفيش أي سلاح سبِّب نسبة قتل في العالم أدّ ذكورة الرجل.
ويضحك بينما ينظر له عزت مبتسمًا:
- رغم إن كلامك سليم وإن ضررها أكبر من قنبلة هيروشيما، إلا إن دا كلام قهاوي سعادتك.
- بس أعتقد إنك لازم تاخده في الاعتبار، الجنس سبب كل ما هو لا أخلاقي في مجتمعنا، كل حاجة بتشاورلك عليه، كل القضايا تقريبًا بتدور حول مشاكله، آداب واغتصاب وزِنا، وناس بتسرق عشانه، وناس بتدمن عشانه، وواحد يقتل أخوه عشان واحدة، ودلوقتي واحد ينام مع حماته وواحدة تقتل ابنها عشان شافها مع أخو جوزها، كله من الجنس.
ينظر له عزت وابتسامته تختفي.
- كلام قهاوي برضو، الجنس مظلوم في البشرية.
تتسع ابتسامة مكرم:
- دا إزاي إن شاء الله سيادتك؟
- الجنس رغبة، شهوة زي الأكل والشرب، لكن الجشع والحقد والحسد، هُمَّا اللي بيحوِّلوه للي إنت قلت عليه دا كله، المرض اللي بيصيب البشر من كتر ما بيشحنوا نفسهم، أنا قصدي البشر الرجال طبعًا، إنت بيتعرض عليك حاجات كتير في حياتك، إنت اللي بتختار تمحورها حول جسد المرأة، وبتحطوا هدف ليك تجري وراه طول ما إنت عايش.
- أنا ماحطش أي أهداف.
ينظر له عزت وهو يسحب نفسًا عميقًا تهتز له الشيشة، ثم يخرج دخانًا كثيفًا وهو يستكمل، متجاهلاً مزاح مكرم اللطيف:
- تخيل لو واحدة مشيت في الشارع عريانة، هتشعل أكيد النشاط الجنسي لكل الرجال اللي في محيط تواجدها، بس المفروض دا أقصى حاجة ممكن تحصل، إن كل واحد لا مؤاخذة يشتعل وهو في مكانه، لكن دا آخر الغريزة الجنسية، لكن إن إنت تتحرك ناحيتها وتحاول تتحرش بيها لفظيًّا أو جسديًّا دا مالوش علاقة بالغريزة الجنسية، دا ليه علاقة برغبتك المريضة في السيطرة والتملك والتلذذ بإرهاب إنسان أضعف منك والشعور بالقوة، الاغتصاب مش لإشباع غريزة جنسية أدّ ما هو إشباع لأمراض تانية جوه البشر اللي بيعملوا كدا، اللي يضايق أكتر إنهم بيسموهم ذئاب بشرية وحيوانات، ودا ظُلم للذئاب للأمانة والحيوانات، هُمَّا يتسموا بشر، دا حقهم، لكن الجنس دا شيء راقي، رغبة بتراضي الطرفين من حيث الأسلوب والأداء، مشاركة بين رجل وامرأة لهم الحق في إنهم يعملوه دون المساس بحرية الآخرين.
يطيل مكرم النظر إلى عزت قبل أن يقول والابتسامة لا تغيب عن وجهه:
- ياا سلام، إيه الكلام الرائع دا، طيب ما انت عارف أهو إن فيه بشر مريضة مش هقول حيوانات عشان ماتزعلش، وإن اللي بيحركهم مرض نفسي للتعدي على حرية الآخرين، وكلامك دا يطبق فكرة إن التحرش دا ممكن يدخل في جريمة إرهاب وتهديد، وبرضو مش مقتنع إن البنت بريئة؟
يتراجع عزت بظهره على الكرسي وهو يسترجع نظرته الباردة المعتادة.

- أكيد، أنا ماكنتش هناك معاهم، وما أعرفهاش وما أعرفهوش، وأغلب الشعب المصري تحت تهديد المخدرات وماشيين في الشارع خارج الوعي، لكن ماحدِّش ماشي شايل سكينة في شنطته ويطلعها ويعمل اللي هي عملته دا، وماحدِّش يقطع هدومه في نص الشارع ويشتم، فافترض إنه كان بيهددها، وافترض إن أهله كدابين، وافترض إنها كانت تحت تأثير نفسي للضغط، طيب ما احكم بالافتراض والسلام، وبلاش جلسات ولا استماع وأوفر للدولة والمحكمة.
- ولا يتحط في الاعتبار.
- ممكن، لو بقارن بين إعدام ومؤبد.
يصمت مكرم، تتوقف رغبته في الرد منعًا لاستفزاز عزت أكثر، بينما عزت يتنفس في الشيشة، قبل أن يشق مكرم الهدوء مرة أخرى:
- رايح بكرة لكريم؟
- إن شاء الله.
- وهتاخده النادي برضو؟
ينظر له عزت فيقطع مكرم النظرة:
- النادي كويس ليكوا انتوا الاتنين، خليك في النادي.
ينظر له عزت ويبتسم، قبل أن يطلق كتلة من الدخان في الهواء، ليفكر في الغد، ولا يزال عندما يتذكر القضية، يفكر هل سيأتي كمال مرة أخرى، ينتظر اليوم الذي ينتهي فيه من تلك القضية حتى تأخذ كمال من عقله وتختفي بلا رجعة.
****
يقف كعادته يوم العطلة منتظرًا في سيارته ابنه كريم، يفكر نفس الأفكار، ليظهر كريم الذي سيقضي معه نفس اليوم المُكرَّر، يركب كريم السيارة ويتحدثان نفس الحديث، ويسأله والده في الغالب نفس الأسئلة قبل أن يقطع كريم الملل:
- بابا، هو إنت بتحبني؟
يردّ عزت ردًّا حاسمًا لكن ببرودٍ:
- طبعًا، ليه بتسأل سؤال زي دا؟
- حضرتك مابتكلمنيش خالص، وبتشوفني يوم واحد في الإسبوع بحس إنك جاي غصب عنك.
ينظر له بطرف عينه:
- لا طبعًا، وأنا لو مش مهم معايا، مش هاجي.
- ليه مفيش مرة جيت قُلتلي مثلاً تعالي عيش معايا شوية؟
عزت المندهش من الحوار يجيب:
- أنا عايش لوحدي، وأعتقد إنك سعيد مع والدتك.
- طيب ليه مفكرتش تخليني سعيد معاك؟
عزت يشعر بتغيُّر نبرة صوت كريم إلى نبرة استجواب، فتزداد نبرته هو حزمًا:
- عشان أنا عارف إنك مش هتكون سعيد معايا.
فيزداد التحدي في صوت كريم:
- وليه مافكرتش تخليني سعيد وجنبك في نفس الوقت.

يصمت عزت، يشعر أن هناك مشكلة تواجه كريم في المنزل، وقبل أن يفكر في السؤال عن تلك المشكلة يقطعه كريم بقدرٍ كبيرٍ من الضيق:

- خلاص يا بابا، أنا آسف، أنا ناسي إن مفيش حد فاهم الصح والغلط في الدنيا دي زي حضرتك.

يلتفت عزت برأسه إلى كريم لثانية، وهو ينظر له في غضبٍ، قبل أن تجحظ عيناه، لا لكريم، بل لرؤيته لسيارة خلف كريم تقطع التقاطع الذي يسير فيه بسرعة تجاه سيارته.. صوت ارتطام.. انفجار الوسادات الهوائية، ثم يغيب الوعي.

الفصل العاشر
لا تندم بعد الساعة العاشرة مساء

لا أحد يعرف متى النهاية، لكن الجميع يعمل من أجلها؛ لذلك وجب أن تكون النهاية مثالية
يجلس عزت على مقعد في استقبال المستشفى، مربوطَ الرأس بسبب جرح في جانب رأسه، إضافة لبعض الكدمات، صداع شديد ودوَّار بسبب الحادثة، ولكن لم يشغل هذا عقله، كريم، في العناية المركزة، ابنه الوحيد بين الحياة والموت، يجلس في هدوءٍ، مُحاولاً السيطرة على تفكيره، الذي نتيجة الصدمة يخرج من عقله وهو يتمشى بحرية ولامبالاة داخل ذكريات عزت التي تشبه المكتبة الكبيرة.
يسير عزت وراء تفكيره كالأسير الذي يتمشى في تلك المكتبة الكبيرة، باحثًا عن صور قديمة في عقله لعلاقاته مع كريم، يذهب في البداية بالطبع إلى مكتبة الصور، ويخرج صور كريم عند الولادة، وأي لحظات مطبوعة ومحفوظة في تلك المكتبة عن فترة الطفولة، ولكن التراب يخفيها، فينفخ فيها ويضرب عليهم بكفه ليطير التراب، ثم يعرضها على عزت الذي ينظر لها بصمت وغليان، يستكمل السير في مكتبة عزت العقلية، ويخرج له صفحات من ذكرياته عن كل علاقات الآباء والأبناء الجيدة التي كان يتهكم عليها، ويستعرضها له، ثم في النهاية، يصحب عزت إلى باب المكتبة ويقدِّم له كتابًا كان يضعه تحت إبطه منذ بداية الجولة، مكتوب عليه «الموت هو الحقيقة الأصلية»، شيرين طليقته، دخلت لرؤية ابنها، دون أن تعير انتباهًا لعزت، وهي تدعو الله، لم يكن يهتم بشيء، بالطبع بسبب الوحدة التي يغلِّف بها حياته، لم يجد مَن يشاركه تلك اللحظات الكريهة، إلا تفكيره الذي أخذ ضميره إلى غرفة منفردة، ليفعل له ما كان يفعله مع مروه، بالطبع لم تدمع عيناه، ولكن قلبه أنهكه البكاء الصامت.
لم يتحرك من مكانه، لساعات طويلة، حتى رأى شيرين تتقدم ناحيته والدموع تملأ عينيها، بينما يثبت عينيه عليها، أخرج تفكيره ضميره من الغرفة المنفردة، وذهب به إلى قلبه وعقله، جمع الثلاثة معًا، وأوقفهم صفًّا جنبًا إلى جنب أمام ثلاثة جنود، السكتة القلبية والسكتة الدماغية والشلل الرباعي، أمام بعضهم البعض، بينما يقف تفكيره حاملاً منديلاً أحمر، يستعد الثلاثة للانطلاق، الهدوء الذي وُلِدَ به هو غلافه، بينما هناك بركانٌ سيؤدي إلى حتفه بعد كلمات شيرين المنتظرة، تسير شيرين وتقف أمامه في صمتٍ للحظة، وتنظر إلى عينيه، نظرة أوقفت دقات قلبه لثوان.
- الدكتور قال الحالة استقرت، بس هو هيفضل في غيبوبة شوية.
ثم توليه ظهرها وتسير..
متى كانت آخر مرة ذكرَ الله، بالطبع لن يتذكر، لكنه كان منذ زمنٍ بعيدٍ، وإلا أنه شكر الله في داخله، شكرًا عميقًا عابرًا، ثم وقف وسار خارجًا من المستشفى، برغم من الكدمات التي لحقت بجسمه كله، ويسير بصعوبة، لكنه خرج من المستشفى، وأوقف سيارة أجرة واتجه إلى منزله.
***

اليوم التالي
يدخل كمال المكتب ظهرًا، بينما محمود جالس.
- صباح الخير يا محمود.
- إيه يا كمال كنت فين؟

- كنت بعزي شيماء.
- وإيه أخبارها إيه؟
- في انهيار تام، ماعرفتش أكلمها حتى، موضوع صعب جدًّا.
- فعلاً ربنا يكون في عونها، ظروفها بتصعب كل يوم عن التاني.
يسكت محمود في أسى وهو يفكر في حال شيماء وسط كل هذا، قبل أن يستطرد:
- سمعت اللي حصل؟
يردّ كمال بلا مبالاة:
- حادثة الدويني؟ آه سمعت.
ينظر له محمود باستغراب:
- أُمَّال شكلك مش مهتم ليه؟
- مش حاجة مهمة على ما أعتقد، هو بخير الحمد لله.
- دا بيقولك ابنه في العناية المركزة.
- ربنا يشفيه، إحنا مش هنتمنى أذيّة حد عشان نكسب القضية يا محمود.
يرجع محمود خطوة، ويضع حقيبته على المكتب، متعجبًا من موقف كمال، كان يعتقد أنه سيجده سعيدًا بمثل هذا الخبر، الذي قد يؤدي بشكل أو بآخر إلى كسر شوكة عزت وقد يؤثر على حكمه في القضية بشكل غير مباشر، ولكن يبدو أن كمال حزينًا بعض الشيء.. مما جعله يتساءل ماذا في عقل كمال.
كمال بالفعل كان متعاطفًا نوعًا ما مع عزت، كان يعتقد أن رجلاً بمثل صلابة عزت يعرف من داخله أنه لا يوجد شيء يمكن كسره، ولكن بالطبع لا شيء يكسر الإنسان سوى أبنائه، قد يكون الظاهر أو المعتقد أن عزت رجلٌ بلا مشاعر، ولكن من حديث كمال معه القصير يعرف أنه رجل ذو مبادئ، ويعرف عن الإنسانية الكثير، برغم أنه ينكرها، الواقع يقول إن عزت الآن في وضع لم يكن هو نفسه يخطط أن يكون فيه في يومٍ من الأيام، وبرغم أن وظيفة كمال قد تستدعيه إلى استغلال مواقف غير إنسانية من أجل كسبٍ غير أخلاقي، ولكن تلك لم تكن أخلاق كمال بالمرة.
- محمود.
- أيوه.
- عايز عنوان عزت الدويني.
***
- سمعت باللي حصل للقاضي بتاع قضية سعد؟
- لما تتكلم يا رشدي في الموضوع دا قول بدون مقدمات.
- عمل حادثة وفي المستشفى.
يصمت سيد المليح برهة، وهو يفكر:
- يعني إيه، مش فاهم، القضية هتتأجل لحد ما يخف، ولا هيجيبوا قاضي تاني غيره، ولا حيعملوا إيه؟
- أنا كلمت المحامي وقالي هيبلغني بالجديد أول بأول.
ويسكت رشدي للحظاتٍ قبل أن يستكمل في توتر:
- بس المحامي بيقولِّي، لو أي قاضي غير القاضي دا مسِك القضية، البت هتاخد براءة.

يقف سيد ووجهه يصنع ألوان الطيف.
- يعني إيه الكلام دا؟
- أنا كلمت المحامي، عشان قضايا المرأة والهوجة بتاعتها، القضية دي في الغالب تاخد حُكم مخفف، الفرصة الوحيدة، هي إن القاضي اللي اسمه عزت دا يمسكها عشان مابيتفاهمش.
يخبط سيد بقبضته المكتب وهو يصرخ:
- وأنا لحد إمتى هفضل في القرف دا، أنا قرفت، هو العدل في البلد دي مات، واحدة تدبح وتقطع وتشفي شاب محترم في نص الشارع، ومش عارفين لحد دلوقتي هيحصل معاها إيه..
ثم يجلس على مكتب وصدره يصعد ويهبط كمصعد المباني الحكومية:
- بس أنا خلاص، من أول ما الحيوان أبوها جالي وأنا أخدت القرار.
ينظر اليه رشدي بحذرٍ وترقب.
- قررت إيه يا سيد؟
يفتح سيد درج مكتبه، ويتابع قائلاً:
- أنا هحضر جلسة الحكم، ولو القاضي ماجابش حقي..
يخرج مسدسًا من الدرج وهو ينظر له ويستكمل:
- هاخد حقي قُدَّام الناس كلها.
ينظر له رشدي في هلعٍ.
- إنت هتودي نفسك في داهية كده يا سيد، بلاش جنان.
بغضبٍ وحزنٍ يبدل سيد نظراته ما بين المسدس ورشدي حتى تستقر عيناه في عيني رشدي:
- اللي مات ماترجعهوش الفلوس، يرجعه الدم بس.
وينظر للمسدس بانكسارٍ شديدٍ:
- أنا هَفْدِي دم ابني يا رشدي.
***

العقل الباطن هو مسرح تجريبي خاصٌ جدًّا، يُخبِّئ فيه الإنسان كُلَّ شياطينه وأسوأ أعدائه، لكي لا يواجههم في الحياة اليومية وهو واعٍ، عزت عكس كل البشر، كان يضع إنسانيته في عقله الباطن، كان يخرج كل ما هو إنسان من داخله ويبني السدود لكي يحمي نفسه من أن ينخرط مع تصرفات البشر، أن يرى العالم من خلال أعينهم، ويتفق معهم في الرأي، كان هذا لأسبابٍ نفسية أولاً، بالإضافة إلى جانب عمله الذي يشكل حياته، والذي يعتمد أن يرى القضية أمامه بصورة مُطلَقة، دون التعاطف مع طرف على حساب الآخر، إن التعاطف في وجهة نظره هو إخلالٌ بشرط الحيادية، وهو صفة لا يجب أن تكون في القاضي الجيد، المشكلة الآن.. أنه بدأ يتعاطف.
«إبقى لما تقابله، قوله ضميري كان مرتاح، قوله كنت بحقق عدلك، قولُّه يا رب إنت اللي قُلت احكم عليه عشر سنين»
«وإيه الفائدة اني اشرحلك وأنت ثوابتك مابتتغيرش.»
«خلاص يا بابا، أنا آسف، أنا ناسي إن مفيش حد فاهم الصح والغلط في الدنيا دي زي حضرتك.»

زحام أصوات اللوم والمعاناة تغيم على شمس مبادئه وقواعد حياته في عقله، ضباب أبيض يصعد على سواد المنطق، يقطع كل هذه الضوضاء في رأسه صوت ضميره الغليظ:

« لماذا؟!»
ما فائدة كل تلك الانتصارات لقواعد وقوانين صُنِعَت من أجل إنسانية تتهشم أسفلها، ماذا سيتغير إن تغير هو، ماذا سيخسر إن انتصر للإنسانية والمشاعر، منصبه باق، سمعته باقية، لا خسارة مادية في راتبه الذي لا يحتاجه ولا معنوية في الارتقاء لمناصب لا يطمح هو لها من الأساس، تلك الوظيفة التي يشغلها ليس بها نجاح أو فشل، هو ليس طرفًا في صراع، هو فقط الحكم، ولا أحد سيحاسبه بما حكم، فلماذا لا ينتصر للحياة على حساب الموت، لمَ لا ينظر كإنسانٍ ليس كقاضٍ.
يصمت قليلاً مُحاولاً أن يستجمع هذا السلام الداخلي المُبعثَر في جوانب روحه، قبل أن يقطع صوت الضمير مرة أخرى تلك المحاولة.
- لنجرب مرة.
ولمَ لا، تجربه لن يخسر بها شيئًا، تجربة تعيد الحياة لفتاةٍ هو يعلم أنها قد تصرفت خارج الوعي، تجربة قد تعيد بناء جسرِ ثقةٍ بينه وبين ابنه الذي عندما يعود إلى حياته لن يتذكر سوى أنَّ آخر ما دار بينَهُ وبين أبيه مشاجرة انتهت بكارثة، فليضع تلك القضية كبداية لعلاقة وطيدة بين أبٍ وابنٍ، تجربة قد تُغيّر شكل حياته للأبد، بل الأفضل له أن يترك كل هذا العبث، وأن يترك هذا الملل الذي يمتلك حياته، الذي عندما تحوَّل إلى إثارة أدخلته في دوامة لا نهائية، ووضعت قاضي أمام محكمة الضمير، وأن ينظر إلى ابنه الذي اتهمه بالإهمال بنظرة الأب، وأن يبحث عن حياة جديدة، بديلة للفوضى التي تختبئ خلف ردائه الأسود الرسمي، خطوة واحدة ليرتاح من هذا الجدل، قرار يعود به إلى الهدوء الداخلي.. لتكون تلك القضية هي المسمار الأخير في نعش الفوضى، ليكون هذا الجدل هو قضيته الأخيرة.
يغمض عينيه وهو في أعمق أفكاره ويتمتم:
«الأخيرة.»
تلك المرة يقطع أفكاره الإيجابية صوت جرس الباب، يرتفع حاجبيه في دهشة لأنه لا يتوقع حضور أحد، ويرتفع حاجباه أكثر عندما يفتح الباب ليجد زائرًا غريبًا على بابه.
- كمال!!
- مساء الخير سيادة المستشار، أرجو إني أكون ما أزعجتش حضرتك.
بالرغم من دهشة عزت للزيارة، لكنه يشير بهدوءٍ لكمال للدخول إلى المنزل.
- اتفضل.
يدخل كمال خطوتين ليشير عزت تلك المرة إلى مقعد في الصالة بعينه، يذهب كمال دون تفكير ليجلس عليه بينما يجلس عزت في المقعد المقابل له.
- أنا جاي أتطمن على حضرتك، وأقولك حمد لله على السلامة.
- الله يسلمك يا كمال بيه.
لم يتغير أيُّ شيءٍ في عزت بالنسبة لكمال، نفس درجة الصوت لم تنخفض، نفس النظرة الهادئة لم تنكسر،
- وألف سلامة على ابن حضرتك، أنا عرِفت إن الحالة استقرت.
- نشكر الله على كل شيء يا كمال.
يصمت عزت لخمسة ثوانٍ:
- أنا كان بِوِدِّي أقدِّملَك حاجة تشربها، بس البنت اللي بتنضف بتمشي بدري.

- لا يا افندم خالص، ألف شكر، أنا جاي بس أتطمن على حضرتك، ومش هاخد من وقتك كتير.
كانت هناك فترة صمت بين كل عبارة وأخرى، ولكن كمال يقطعها تلك المرة.
- وأنا جاي أعتذر لحضرتك عن آخر مرة كنت معاك على القهوة ومشيت مرة واحدة.
ينظر له عزت نظرة مختلفة، في ظروفٍ أخرى كانت لتمر تلك الجملة كباقي الجُمَل، ولكن عزت يتذكر الدوامة التي دخل بها بعد هذا التصرف.
- أنا ما أنكرش إني استغربت لرد فعلك، بس خلاص عدى، بالرغم من إني كنت أتمنى معرفة السبب.
ينظر له كمال بهدوء، الذي قرر أن يكون صريحًا جدًّا مع عزت.
- أكيد حضرتك عارف إن أنا كنت بحاول أوصَّل لحضرتك وجهة نظري في القضية اللي حضرتك قاضي فيها، وكنت بحاول أشرح لحضرتك إن الظروف مختلفة، وإن القضية دي بالذات الحكم فيها لازم يكون مختلف، لكن صلابة حضرتك جعلتني أحِس بإن مفيش أمل، فانفعلت ومشيت.
ينظر له عزت، تلك المرة مختلفة.
«خلاص يا بابا، أنا آسف، أنا ناسي إن مفيش حد فاهم الصح والغلط في الدنيا دي زي حضرتك.»

ترن في أذنه جملة ابنه حتى الآن كأنه لا زال في السيارة.
- أنا عارف إنها قضية مختلفة نسبيا، بس القانون مابيختلفش يا كمال، القانون ليه نصوص ثابتة، وأنا قاضي، لو اتعاملت مع كل قضية باختلافاتها، مش هعرف أطلَّع حكم واحد صح، لأن في قضايا بتكون مختلفة، بس بتتوزن بنفس الوزن، وما أقدرش أدِّي في نفس القضية حكمين، وأعتقد إنك فاهم دا كويس.
- أنا فاهم يا سيادة المستشار، وأنا في الأساس جاي أتطمن على حضرتك، وأعتذرلك على انفعالي.

- مفهوم، واعتذارك مقبول.
المشاعر كما قالت هبة هي الحل، لكن مشاعر عزت أن يكون واثقًا في صدقك.
- أستئذن أنا دلوقتي يا سيادة المستشار، ومستني أشوف حضرتك في المحكمة قريب.
يقف كمال ويليه عزت الذي يمد يده ويسلم عليه.
- شكرًا على زيارتك يا كمال بيه، وهفكر في القضية بتاعتك أكتر.
يسير كمال ناحية الباب وهو في قمة السعادة من داخله لتلك الجملة، ثم يلتفت مرة أخرى إلى عزت:
- بس في حاجة سيادتك وعدتني بيها وماعملتهاش.
يرتفع حاجب عزت كالبشر عند الاندهاش.
- إيه هي؟
- نهاية قضية خليل الطايل.
يضع عزت يده على ظهر كمال وهو يوجهه إلى الباب:
- خليل مات يا كمال بيه.
- ما أنا عارف، أنا كان قصدي...

يقاطعه عزت:
- اتشرفت بزيارتك يا كمال بيه.
يخرج كمال من باب الشقة ينظر لعزت ويحييه بإشارة حتى لا يطيل الكلام حرفًا آخر، لعله يتسبَّب ضيق في صدر عزت فيثنيه عمَّا يجول في خاطره بخصوص القضية، يغلق عزت الباب، ويسير ناحية الشرفة مرة أخرى، وعندما يصل، يسمع صوت جرس الباب مرة أخرى، يسير ناحية الباب، يلقي بنظره على المكان الذي كان جالسًا به كمال، لعلَّه عاد لنسيانه شيئًا من متعلقاته، لكن لا شيء هناك.
يفتح الباب، كان يقف أمامه رجلٌ عَجوزٌ في السبعينيات من عمره، لكن تبدو عليه الصحة، مرتديًا بذلة أنيقة للغاية، بمنظارٍ طِبيٍّ أنيق وشارب مهذب بعناية كأنه مرسوم على وجهه، شعره الأبيض مُصفَّف بعناية، كان الرجل العجوز أشبه بلوحة مرسومة بالأبيض والأسود ذات تفاصيل قوية، حتى تجاعيد وجهه كانت مُنظَّمة، بمجرد أن فتح عزت الباب تحرك الرجل للدخول دون إذنٍ منه، ليتحرك عزت بسرعة ليفسح له المجال، كان يسير بقوة، وسار حتى جلس على مقعد في الصالة نفس المقعد، الذي كان يجلس عليه كمال، ووضع قدمًا على قدم، كان يحمل في يده جريدة مطوية بقسوة، ليقطع عزت الهدوء الذي صاحب ظهور الرجل.
- مساء الخير سيادة المستشار.
ينظر له الرجل بحدة:
- إنت كان عندك حد حالاً؟
- آه ولسه ماشي.
- دا كان زبَّال ولا إيه؟
- لا محامي حضرتك.
- أكيد حثالة المحامين، اللي يحط كولونيا شنيعة ورخيصة بالمنظر دا، أنا لو وكيل نيابة حطها، أخليه يكمل قضيته من القفص جنب المتهم.
كان يتحدث بحدة، إذا وضعت بجانب طبقة صوته الخشن الجاف، يصنع صوت ضابط يأمر جنوده في إحدى الحروب القديمة.
- تحب تشرب حاجة حضرتك؟
ينظر العجوز في ساعته، ثم ينظر لعزت.
- فودكا تبقى مناسبة، لو اللي عندك مش نوع رخيص زي الناس اللي بتدخَّلها بيتك.
يذهب عزت إلى المطبخ، ويعود بزجاجة وصندوق ثلج وكوب، ويصب في الكوب القصير المخصص لتلك المشروبات ثم يضع قطعتين ثلج، ثم يلف الكوب بمنديل ورقي بصورة منظمة، ويقدمه للعجوز الذي ينظر لكل ما يفعله بترقب، يمسك الكوب وينظر لعزت.
- وإيه اللي جاب الآفة دا عندك البيت؟
يجلس عزت على نفس المقعد.
- جاي يقولِّي حمد لله على السلامة.
يأخذ العجوز رشفة، ثم ينظر إلى عزت بحدة:
- يقولها من على الباب، زيه زي البواب لو جه وقالهالك، هتدخَّله البيت مثلاً.
يسكت لثانية ويستكمل:

- ودا عرفته منين إن شاء الله؟
- محامي قضية بحكم فيها.
- أنهي قضية؟
- شيماء، البنت اللي قتلت واحد في نص الشارع.
ينظر لعزت بشيءٍ من غضبٍ:
- وإزاي تسمحله يوصل للدرجة دي من التواصل معاك، إزاي يعدي الحدود دي كلها.
ينظر له عزت بشيء من الضيق:
- كان بيتناقش معايا في حاجة خاصة بالقضية.
- الكلام دا في المحكمة، قُدَّام الناس، مش يجيلك البيت، وقالك حمد لله على السلامة، وانت هتحكمله بالبراءة إن شاء الله؟
يتحدث عزت بهدوء:
- يا بابا بلاش تفسر المواضيع كده بعد إذنك.
ينظر له بغضبٍ هذه المرة.
- بابا دي كنت تقولها وانت بشورت، اسمها سيادة المستشار يا عزت بيه.
يصمت ويأخذ رشفة صغيرة من الكأس ويعيد قطعتي الجمر اللتين في جمجمته صوب عزت:
- أنا قريت عن القضية دي كلها، وحكمها واضح أعتقد، البنت مذنبة، ولَّا انت ليك رأي تاني يا عزت بيه؟
ينظر له عزت محاولاً تجاهل تأثير غضب والده:
- القضية مش بالسهولة دي.
- القضية منتهية، إحنا مابنجادلش يا عزت بيه.
يضرب بكعب الكوب على المنضدة وهو يضعها ويقف، فيقف عزت لا إراديًّا هو الآخر،
- من فترة فاتت كنت أول ما سألتك كنت قُلتلي الحكم النهائي قبل ما تقول قضية إيه، بس واضح اللي أنا خايف منه حصل، والحادثة وابنك أثروا عليك، وهيخلوك تطرى، وتعر العيلة.
يصب كوبًا آخر لنفسه، وهو ينظر بغضب لعزت:
- واضح إن في حاجات كتير إنت ما اتعلمتهاش في حياتك، وفي حاجات باظت في تربيتك لما سبتك، مش كفاية إنك وافقت مراتك وطلقتها وسِبتها تاخد ابنك وتربيه وهي قاعدة على حِجر راجل تاني، واحنا بنخلف ليه أساسًا، عشان نجيب رجالة تشيل اسم العيلة ومهنتها اللي بقالنا فوق ال 100 سنة شايلنها، لكن ابنك دا شايل اسمك عشان يعرك، ومتربي على إيد واحدة عرة، ماكانتش تطول تقرب لعيلتنا، وبدل ما تشكمها سيادتك سبتها، وانت زعلان عليه، بدل ما تتمنى موته عشان ياخد عاره ويندفن بيه، وتقطع نصيبك من الجرم والعار اللي جبتهولنا.
يظل واقفًا، غضبه يمنعه من الجلوس.
- كمان قضية سهلة بتراجع نفسك فيها، إحنا من إمتى بنحكم في قضية من وجهة نظرنا، إحنا مالناش وجهة نظر، إحنا لينا قانون بيقول براءة يبقى براءة، إعدام يبقى هو إعدام، مابيقولش نفكر، كل دا يحصلَّك عشان حتة عيِّل خلفته، ممكن بكرة تلاقيه اشتغل اللي هو عايزه من غير ما ياخد رأيك أصلاً، بتبيع سنينك يا غبي عشانه، انت مش في عالمه أصلا

على قدرٍ ما آلم الكلام عزت وأغضبه، ولكن ما صار طوال الرواية لن يتغير الآن، ويبقى عزت هادئًا:
- أنا ماقُلتش مش هطبَّق القانون، أنا بس بفكر في أنهي تطبيق أستخدمه.
لم يكن عزت مقتنعًا بما يقول، ولكن هو يستجمع نفسه على قدر المستطاع أمام هذا الكابوس الحي.
- إنت فاكر كده هتضحك عليَّ، اقعد يا عزت.
يجلس عزت، ثم يجلس راغب الدويني، ينظر لعزت طويلاً ثم يتحدث بلهجة الشدة غير المنفعلة:
- أنا هحاول أكون هادئ معاك، أنا اللي جابني، إني خفت على اللي بنيته كله فيك يضيع، البشر العاديين هُمَّا اللي يغلطوا، هُمَّا اللي يفكروا بمشاعرهم ويحكموا على بعض من خلال تجاربهم وحالتهم النفسية خلال الحكم، أفكارهم رخيصة، وأحلامهم تافهة، بيخبطوا في بعض، وييجوا للقضاء، عشان يحكم بينهم.
ثم يقف ويسير ليقف خلف كرسي عزت:
- القضاء سيف، يقطع، حد السيف مابيشوفش الرقبة أو الإيد دي كانت بتفكر في إيه وبتحلم بإيه، غني ولا فقير، طيب ولا شرير، مفيش غير حاجة واحدة، مذنب ولَّا غير مذنب، وعشان تكون قوي في حكمك، عشان تكون سيف في حكمك، لازم تبقى من غير مشاعر، أعتقد إنك فاهم الكلام دا كويس.
ويضع يديه عل كتف عزت.
- أُمَّال إنت فاكر ليه أحنا بنملك الفلوس والسُّلطة والهيبة، عشان شُغلنا بيحتاج إننا مانكونش محتاجيين زي البشر، إن كل أوامرنا تكون مُطَاعة، مابنتفتش وماحدِّش يقدر يكلمنا، عشان ننعزل عن اللمامة التانية، ودي عيلة الدويني، كلها في السلك دا، ابنك دا مش ابنك، مش دويني، دا نتيجة نزوة، حيوان منوي راح بالخطأ في سكة مش سكته، إنساه وفكر في بكرة، فكَّر لو في مرة فكرت ترجع عن القانون وتستخدم قلبك وعقلك، دي هتكون نهايتك.
يغلق عزت عينيه وهو يميل برأسه إلى الأمام، بينما يتركه والده ويسير ليمسك بالجريدة التي على المنضدة.
- السكاكين كلها حواليك مسنونة، القضية في الإعلام، لو حكمت غير حكمك هيقولوا اتأثر باللي حواليه، وإنك بقيت قاضي عادي، ووقتها، هتبقى نهايتك، بفكرك إن في 3 أنواع من البشر، وإن أول ناس هيولعوا في النار، هُمَّا المترددين.
يسير ناحية الباب وعندما يصل إليه ويفتحه ينظر إلى عزت الذي ما زال جالسًا مغمض العينين يفكر.
- ارجع لنفسك قبل ما تفقدها، يا هتحصَّل خليل الطايل.. فاكره؟
***
العاشرة والنصف مساء.
- اقعد يا راضي.
يقف راضي بجلبابه المتسخ دائمًا، وكانت البقع قد جفت عليه، في أواخر الثلاثينيات، ببنيان قوي وشارب كثيف، ووجه غليظ بعد الشيء.
- ربنا يخليك يا بيه.
- اقعد بس ماتعملش تكليف مالوش فايدة.

- حاضر يا خليل بيه.
ويجلس بتأنٍ خوفًا من أن تلوّث ملابسه الأنتريه، كأن الجلوس سريعًا أو بطيئًا سيؤثر على مُعدَّل الاتساخ، هو فقط ردُّ فعلٍ طبيعي ليعبر عن إحراجه أمام مضيفه.
- أخبارك إيه يا راضي، إنت أحسن دلوقتي؟ مراتك أحسن؟
ينظر راضي إلى خليل بيه أحد سكان العقار، كان ممتلئ الجثة قليلاً ذا جسم هزيل بعض الشيء، خالٍ من عضلات أو علامات القوة، أبيض اللون حليق اللحية، يرتدي روبًا من الواضح أنه لا يرتدي تحته أي شيء، وكأن المتهم الوحيد في قضية ابنته التي ذهبت بوحشية.
- الحمد لله يا بيه.
- محتاج فلوس أو حاجة، أي حاجة أقدر أساعدك بيها؟
- الله يخليك يا خليل بيه.
على المنضدة كوب من عصير البرتقال.
- اشرب يا راضي، اتفضل.
لا يمانع راضي من شرب العصير بما أنه مجاني، يشرب نصف الكوب مرة واحدة، كنوعٍ من الأدب؛ لأنه في وضعٍ آخر كان سيشربه كله مرةً واحدةً.
- أنا كنت عايز أتكلم معاك في حاجة.
- اتفضل يا خليل بيه.
ينظر له خليل بعد أن يطلق نفسًا عميقًا بتأثُّر من فمه.
- إنت شايل مني عشان موضوع القضية دا؟
ينظر له راضي باعتراض:
- لا يا بيه، أنا كنت عارف إنك بريء، إحنا عمرنا ما شُفنا منك حاجة وحشة، وانت راجل فنان.
- الله يخليك يا راضي، اتفضل يا راضي اشرب.
يكمل كوب عصير البرتقال مرة واحدة.
- بس أنا كنت حاسس إنك شاكك فيَّ واحنا في المحكمة.
يردّ الرجل ونظرات الحزن تملأ عينيه:
- يا بيه ربنا ما يجعلك مكاني، أنا كنت شاكك في نفسي، الدنيا اسودت، لكن الحمد لله، حصل خير وعدت.
- أصل أنا شايفك بقالك فترة مركز مع الناس اللي بتجيلي وهُمَّا طالعين ونازلين.
شيء من التوتر يظهر على راضي وهو يرد في تلقائية:
- لا يا خليل بيه، بس من ساعة الحادثة وأنا محرَّس.
يقف خليل ويتحدث وهو يسير أمام راضي:
- راضي، أنا عايز أقولك حاجة..
- اتفضل يا خليل بيه أنا سامعك.
- البني ادم مننا ساعات بيغلط، كلنا بنغلط..
يرد راضي وهو يهز رأسه:
- أكيد يا بيه.
- إنت عارف ربنا بيسامح الناس كلها، لكن البشر صعب يغفروا لبعض.

عقل راضي يفكر في إذا كان خليل عرف أنه يبتز ضيوفه من النساء والشواذ ليعطوه مبلغًا من المال حتى يؤمِّن لهم الصعود والنزول دون سؤال.
- وانت لما بتغلط أنا بسامحك يا راضي.
ويقترب وينظر إلى راضي بهدوء بارد، فيبتلع ريقه، ويرد بصوتٍ خافتٍ:
- الله يخليك يا بيه.
بينما يرد راضي، يشعر بشيء من الخدر في أطرفه، ويسير خليل إلى آخر الصالة ويحمل من هناك الكاسيت الخاص به، ويتحدث وهو يضع الكابس في فتحة الكهرباء.
- أنا بقالي فترة بشعر بشعور غريب أول مرة أحسه، حاجة حصلتلي، وانت الوحيد اللي تقدر تساعدني فيها
يرد راضي ببطء:
- أؤمر سعادتك.
- أنا حاسس بالندم يا راضي، أول مرة أحس بالإحساس دا، وعايزك تسامحني عشان أبطَّل أحس بيه.
و يضع شريطًا داخل الكاسيت، ويضغط على زر التشغيل.
- اسمع يا راضي اللي حصل، بس وانت هادي زي ما انت.
وينظر له بابتسامة وعيناه تتسعان بجنونٍ.
- اسمع وقولي سامحتك.
***
جلس عزت في شرفة منزله ليلاً، يمسك كوبًا من القهوة الثقيلة، يتذكَّر قضية خليل الطايل، كان قد دسَّ مُخدِّرًا لراضي لكي يسيطر عليه، الله وحده كان يعلم ماذا كان سوف يفعل به بعد هذا، الأكيد أنه كان سيصبح لوحة أخرى بجانب لوحة ابنته، لكن راضي الذي كان يحتفظ بمخزونٍ من الأفيون في جوف أسنانه المتحطمة، لم يؤثر فيه مُخدِّر خليل الذي يمكن أن يشربه راضي مثل الكولا للترفيه، وعندما اعتقد خليل أن البواب الفقير تحت السيطرة، أدار له صوت ابنته المسكينة وهي في أكثر لحظة حرجة من حياتها، فاندفع الدماء في عروقه وأصبح في قمة نشاطه فأخذ في ساعات يتلذذ بالانتقام من خليل بالطريقة المثالية بالنسبة له، ليهرب بعد ذلك ويختفي، ويبدو أنه بعدما شاهد الجميع الجانب المخيف من حياة خليل، لم يحزن أحدٌ أو حتى يهتم بملاحقة راضي البواب على حدِّ ما يتذكر هو.
الأساس كان شعور خليل بالندم، كان من الممكن أن يستكمل حياته بصورة طبيعية، ويفعل ما يحلو به، لكن تلاحق نظرات الشك في عيون راضي، ولأن الفتاة كانت أصغر من أن تكون نهايتها في صفيحة القمامة، شعر بداخله بالندم، فقرر التخلص من الشعور بالندم بمصارحة والد الضحية قبل أن يحوِّله هو نفسه لضحية أخرى..
لكن القضية هنا مختلفة، الشعور بالندم عن جريمة هو شعور بشري طبيعي لضد كل ما يخالف الفطرة، الأصل هو الخير، الشر هو ما نندم عليه، كل ما يدور في عقل عزت هو مبادئ، لا يوجد بها حتى نصوص، مبادئ تتحكم في حياة بشر، لا لماكينات، الأعوام التي يحكم بها ويرميها في وجه المتهمين، بالنسبة له أرقام، لكن بالنسبة لهم هي حياتهم التي سيعيشونها مرة واحدة، وسيحاسبون عليها، وقضية شيماء هي قضية فتاة بسيطة أخطأت مرة واحدةِ دفاعًا عن نفسها في

أكثر من عشرين عامًا عاشتهم بدون ضررٍ للمجتمع، كل تلك الإنسانية مُعطّلة لتحقيق قانون صنع من أجلها هي فقط لا شيء آخر.
لا يستكمل عزت كوب القهوة، يتركه ويذهب لغرفته، محاولاً النوم والهرب من كل هذا الهرج بعقله.
***
يوم نطق الحكم..
يجلس عزت في غرفته في المحكمة، كل شيء جاهزٌ، بقي أن يكتب هو وحده الحكم ويخرج لينطقه على الناس، كل الجلسات انتهت، كل الشهود ظهروا، كل الأدلة عُرِضَت، وبقي الحكم النهائي، والده كان قد حدَّثه تليفونيًّا أمس، وقال إنه سيحضر الجلسة ليتأكد من تنفيذه للحكم السليم، كل ما حدث الفترة السابقة جعله في دوامة.
هل تعرف أنه من الصعب أن تكون قاضيًا؟ هو يعلم ذلك عن ظهر قلب، والده كان قاضيًا ووالد والده كذلك، أن تعيش وسط كل تلك القواعد ليل نهار، مع الوقت تبني أسوارًا لخيال عقلك، ويصبح قلبك لا شيء سوى مضخة للدم، تحتاج لأن تتجرد من كل صفات الانحياز، تلك الصفات التي تجعلنا بشرًا في الأساس، أن تكون بشرًا هو أن تؤمن وتعتقد وتنحاز، كل هذا لا يعطي الشفافية المطلوبة لحكم عادل.
أو.. هذا ما تعلمه، هذا ما كبر عليه، لا يعرف شيئًا آخر، ولكن..
وسط هذا كله، هل هناك شيء واحد يجعله ينتصر للحياة، القضية التي أمامه، فاسدٌ مات، وفتاة في مقتبل عمرٍ سوف يُنهيه هو، في قضية أنهت حياة والدها من الحزن، إذا ترك نفسه لتلك التساؤلات، لن يحكم في القضية من الأساس، ولكنه أصبح يفكر في كل ما مرَّ الأيام الماضية..
فى نهاية الأمر يأخذ قراره ويكتب الحكم، ويمر على زملائه المستشارين ليذهبوا إلى قاعة المحكمة.
- محكمة..
يقف الجميع، يدخل ويجلس كعادته، وينظر إلى القاعة..
هل تتذكر البداية؟
الحوائط الرمادية، الخشب ذو اللون والرائحة المقززين، نفس اللوحة في الخلفية، ينظر في هدوءٍ، رعب شيماء، توتُّر كمال وترقُّب الدويني الأكبر، ثم يعود بعينيه بهدوءٍ لينظر إلى الأوراق، يسحب نفسًا عميقًا، ويغمض عينيه لثوانٍ وهو يكتم نفسه، يفتحه عينيه وتتسع حدقتيه، لتبقى الحياة كما هي:
- القضية 146 لعام 2018 جنايات، بعد الاطلاع على مواد 232 و234 من قانون العقوبات، حكمت المحكمة حضوريا بإجماع الآراء بمعاقبة المتهمة شيماء غريب السيد أحمد بالإعدام شنقًا، رُفِعَت الجلسة.
بينما يجمع أوراقه ويقف، يلمح سقوط كمال على مقعده في انهيار، انهيار شيماء خلف القضبان وأمها المتشحة بالسواد تزداد سوادًا وهي تصرخ في ألمٍ، بينما يحتضن رشدي سيد المليح وهو يكبِّر وسيد عيناه تدمعان، وبريق في عين والده وهو يقف مبتسمًا.
نفس المشاهد التي اعتاد عليها، كل شيء يتكرر، كل هذا سينتهي وسوف يعود إلى حياته المعتادة، التي ستظل معتادة، إذا كانت تلك القضية الأخيرة، فلتنتهي كما بدأ وكما كان طوال الطريق.

لماذا التغيير، لماذا التردد؟؟ ألم تعلم أن المتردد يخسر كل شيء، ألم تعلم.. أن المترددون في النار؟!

شكر خاص

إلى أمي: زينات جبرة
وإلى أبي: حسن سالم
لستُ أنا ما عليه لولا فضلكما الغامر
إلى زوجتي هنوه وابني العزيز عمر، أحبكما
وخالص الشكر إلى أصدقائي الذي دعموني
أحمد ماهر شلتوت، البركة
هبة رياض، دائمًا
الشيماء شرارة
دنيا أحمد جبرة
فاطمة الزهراء أبو هلال
وائل حليم، دائمًا وأبدًا
سارة سمير
محمد الأشهب
محمد صادق – أحمد الوصيف – محمد جاد، لا أعرف لماذا.
وشكر خاص للمستشار ممدوح راغب، والدي الثاني وبيسة سعيد، أمي الثانية.
وفي النهاية أشكر الأستاذ/ هيثم حسن، الذي كان لقائي به نقطة تحول.